بسم الله الرحمن الرحيم

(ملخص البحث)

يقوم البحث على دراسة أدب " المراسلات الشعرية " الذي يضرب بجذوره في عمق التاريخ الأدبي عبر عصوره الأدبية المختلفة . بداية من العصر الجاهلي ونهاية بالعصر الحديث ، متخذة من الرسائل المتبادلة بين عَلَمين من أعلام الشعر العربي في العصر الحديث أنموذجا للدراسة والتحليل ، وأقصد بهما أمير الشعراء في وقته محمود سامي باشا البارودي ، وأمير البيان شكيب أرسلان .

وتتمثل أهمية البحث في كونه دراسة تحليلة لأبيات شعرية نُظمت في أصل وضعها من أجل توطيد أواصرالمحبة والاحترام والتقديرالمتبادل بين البارودي وشكيب أرسلان .فالرسائل الشعرية المتبادلة بينهما واحدة من أروع المراسلات الشعرية في العصر الحديث إن لم تكن أفضلهاعلى الإطلاق . والسبب الرئيس في ذلك أنها ؛ نُظمت على يد شاعرين كبيرين لهما باع طويل في نظم الشعر، وتدبيج قصائده .

يهدف البحث – بجانب تحليل الرسائل الشعرية المتبادلة بين الشاعرين – إلى الموازنة بينهما للوقوف على أهم سمات وخصائص هذا الفن عندهما ، والوقوف على الأثر الذي تركته هذه الرسائل في أدب المراسلات الشعرية عامة ، ومردود هذا الأثر على نفس كل منهما . هذا بالإضافة إلى كونها كاشفة عن كثير من الجوانب الشخصية لكليهما ، وذلك من منطلق أن النفس الإنسانية عامة لاتراسل إلا من تألفه ، وتجد فيه جانبا مأنوسا تطمئن إليه ، فيحدث من خلال هذه المراسلة نوع من التآلف الروحي ، والتوافق الفكري ، والتشابه النفسي بينهما .

كل ذلك عرضته من خلال الاعتماد على أسس المنهج الفني التحليلي المدعوم بالموازنة بين نصوص الرسائل الشعرية المتبادلة بين الشاعرين والذي أدي إلى رسم خريطة بحثية تقوم على : مقدمة ، وتمهيد ، وفصليين .

تناولت في المقدمة : الدافع إلى اختيار هذا الموضوع ، والسبب وراء الاهتمام به وبدراسته ، والمنهج المتبع فيه ، والدراسات السابقة التي كانت لي عونا على إتمام البحث والدراسة ، وخطة البحث ، والصعوبات التي واجهتني أثناء فهم الأبيات الشعرية ، وتحليلها وشرحها .

وفي التمهيد تحدثت عن : الرسائل الشعرية بين عراقة الماضي وأصالة الحاضر موضحة من خلال ذلك في لمحة موجزة مفهوم الرسائل الشعرية ، وأركان الرسالة ، ومقوماتها ، وأنواعها . مبينة الفوائد الأدبية للمراسلات الشعرية ومحاولة قدر المستطاع الربط بين ما أتحدث عنه وما يمثله

في مراسلات البارودي وشكيب، ثم تحدثت في عُجالة خاطفة عن تاريخ المراسلات الشعرية عبر العصور الأدبية المختلفة .

وفي الفصل الأول تحدثت بشكل موجزعن التعريف بالبارودي ، ثم التعريف بشكيب أرسلان ، وختمت الفصل بالحديث عن المراسلات السامية ، وكيف بدأت ، والعلة من جعلها في القسم الأول من ديوان أمير البيان شكيب أرسلان .

أما الفصل الثاني فقد قصرته على الدراسة الفنية للمراسلات الشعرية بين البارودي وشكيب أرسلان، وفيه فصّلت القول بالتحليل، والموازنة ، والنقد في مراسلات البارودي وشكيب منتهية من خلال ذلك إلى مجموعة من النتائج أجملتُها في خاتمة البحث ، ثم ثبت المصادر والمراجع التي استعنت بها على إتمام هذا البحث .

- الكلمات المفتاحية للبحث : أدب المراسلات الشعرية – البارودي – شكيب أرسلان – موازنة

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل

أ.م. رضا رمضان أحمد – البريد الجامعي

RedaAkra١٢٠١.el@azhar.edu.eg

(Research Summary)

The research is based on studying the literature of "Poetic Correspondence" which is rooted in the depth of literary history through its various patrilineal eras. The beginning of the pre-Islamic era and the end of the modern era, taken from the exchanged messages between two scholars of Arab poetry in the modern era as a model for study and analysis, and by them I mean the prince of poetry at his time, Mahmoud Sami Pasha Al-Baroudi, and the prince of the statement Shakib Arslan.

The importance of the research is that it is an analytical study of poetic verses organized at the origin of their status in order to consolidate the bonds of love, respect and mutual appreciation between Al-Baroudi and Shakib Arslan. The poetic messages exchanged between them is one of the most wonderful poetic correspondence in the modern era, if not the best at all. The main reason for that is that; It was organized by two great poets who have a long history in poetry compilation and the elaboration of his poems.

The research aims - in addition to analyzing the poetic messages exchanged between the two poets - to balance between them to find out the most important features and characteristics of this art for them, and to find out the impact that these messages left in the literature of poetic correspondence in general, and the impact of this effect on the same for each of them. This is in addition to being revealing of many of the personal aspects of both of them, on the basis that the human soul in general does not communicate with anyone except those who are familiar with it, and find in it a familiar side with which it is reassured, and through this correspondence a kind of spiritual harmony, intellectual harmony, and psychological similarity between them occurs.

All of this was presented by relying on the foundations of the technical-analytical approach supported by balancing the texts of poetic messages exchanged between the two poets, which led to the drawing of a research map based on: an introduction, a preface, and two chapters.

In the introduction, I dealt with: the motive for choosing this topic, the reason behind the interest in it and its study, the methodology followed in it, the previous studies that helped me to complete the research and study, the research plan, and the difficulties I faced while understanding, analyzing, and explaining poetic verses.

In the preface, I talked about: poetic messages between the nobility of the past and the authenticity of the present, explaining through this in a brief overview the concept of poetic messages, the pillars of the message, its components, and types. Indicating the literary benefits of poetic correspondence and trying, as much as possible, to link what I am talking

about and what it represents in the correspondences of Al-Baroudi and Shakib, then I spoke in a hurry about the history of poetic correspondence through the different literary eras.

In the first chapter, I spoke briefly about introducing Al-Baroudi, then introducing Shakib Arslan, and concluded the chapter by talking about the sublime correspondence, how it began, and the reason for making it in the first section of the Diwan of Amir Al-Bayan Shakib Arslan.

As for the second chapter, I confined it to the technical study of the poetic correspondence between Al-Baroudi and Shakib Arslan, and in it I detailed the saying of analysis, balancing, and criticism in the correspondences of Al-Baroudi and Shakib. search .

Keywords: poetic correspondence - Al-Baroudi - Shakib Arslan - balancing - literature

The God of the intent behind a Guide to the way

(المقدّمة)

تُعد المراسلاتُ الشعريةُ عالما رحبا فسيحا يضم بين جوانبه حديث الذكريات ، وهمس القلوب ، وأنين الصدور ، وألم الفقد . وربما تسمع بين سطوره نبض القلوب فرحا ، وترى ابتسامة الأمل الواعد ، وتشاهد إشراقة الصبح الباسم . مابين هذا وذاك تلتقي مع صدقِ العاطفةِ ، وحقيقة الإحساس دونما كذب أوادعاء أو تزيف .

تنظر في عمقِ التاريخ الأدبي فتجد المراسلات الشعرية تُطلُ عليك برأسها من داخل كل ديوان شعري .تفرض نفسها على طبيعة الدراسة النقدية ، توثيقا لأحداث التاريخ من جهة ، و كاشفة لك عن جوانب كثيرة في حياة الشاعرمن جهة أخرى ، فالطّبعيّ الذي لا شك فيه أن الإنسان عامة لا يراسل إلا من تطمئن إليه نفسه ، وتنسجم معه روحه .

فالرسائل المتبادلة بين الشعراء تحفل ببوح شفيق يخلق نوعا من التواصلِ الوجداني بين الشاعرين يُحاول كل منهما أن يحشد مجموعة من المفردات الأنيقة والجُمل الفخمة عالية المستوى لتلقى قبولا عند المرسل إليه وتقع في نفسه موقعا حسنا فيتحقق مُراده ويصل إلى مبتغاه .

دعنا نتفق على أن المراسلات الشعرية فن لا يجيده إلا القليل من الشعراء. ممن رسخت قدمُه في الأدب لأنّها ؛ نمط عال في الكتابة والتجويد تستفرغ كل قوى الشاعر وموهبته في تدبيج نص شعري يحتوي على رسالة يبعث بها إلى شاعر آخر. يجمع الشاعرفيها بين المتعة الوجدانية ، والمتعة الفنية لتُحدث بذلك تأثيرا في نفس من يقرؤها .

إذا أدركت ذلك وأضفت إليه دراسة وموازنة بين رسائل شعرية دارت بين شاعرين كبيرين أصبح لديك كنز دفين ينتظر من يُنقّب عنه .وخبيئة تخرُج جواهرها على يديك . هذا ما حدث معي عندما بدأت رحلة البحث في المراسلات الشعرية فوقع بين يديّ مراسلات دارت بين أمير الشعر محمود سامي البارودي ، وأمير البيان شكيب أرسلان. ماذا عساي أن أقول عن شعر البارودي ؟ وقد تحدّث عنه من هو أفضل منّي علما ونقدا ، أما أمير البيان شكيب أرسلان فلا أُخفي على القارىء أني لم أكن أعرف عنه الكثيرقبل هذه اللحظة ، فما إن بدأتُ أقرأ عنه وعن سيرة حياته ، ومجهوداته في خدمة العرب والمسلمين ، أصبح لديّ شعورعارم أن أقرأ عنه أكثر وأكثر . وكلما قرأت له أوعنه زاد إعجابي به ، و بشخصه ، وبأدبه . فقد كان صاحب فكر يُدافع عنه ويتبناه ليس لخدمة ذاته ، وإنما لخدمة الأمتين العربية والإسلامية على حد سواء ، وهو في مجال النثر كاتب لايُبارى إمام المترسلين بلا مُنازع كما قال عنه مطران ، وفي دنيا الشعر يُعد شاعرا حصيفا قويا يقبض بكلتا يديه على منابع التراث الشعري ، وقد شهد له مجموعة من النقاد المنصفين شهادة حق فجعلوه في مصاف الشعراء المجيدين . وبعد هذا كله وجدت نفسي مدفوعة برغبة قوية لدراسة

جانب من أدبه الشعري وعمدتُ إلى رسائله مع البارودي تلك التي جعلها في مقدمة ديوانه وخصّها بالقسم الأول منه .

وفي سبيل ذلك استعنت بمجموعة من الدراسات السابقة التي تخدم موضوع البحث وتُقدّم رؤى تساعدني على الإضافة الحقيقية للمنهج المتبع فيه ، منها على سبيل المثال لا الحصر :

– الأمير شكيب أرسلان – سيرة ذاتية – تأليف : شكيب أرسلان

– الأمير شكيب أرسلان حياته وآثاره – تأليف : د/ سامي الدّهان

– الرسائل الشعرية في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي – دراسة موضوعية – بحث مُقدّم من :عبد العظيم السامرائي

– الرسائل الشعرية في العصر الجاهلي – قراءة في بدايات النوع الأدبي – مهى عبد القادر

– الرسائل الشعرية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري – دراسة موضوعية فنية – ميادة جبوري

– أمير البيان شكيب أرسلان – تأليف : د/ أحمد الشرباصي

– جمالية فن الترسل الشعري في الأندلس – تأليف : د/ إبتسام دهينة

– ذكرى الأمير شكيب أرسلان – المراثي وحفلات التأبين وأقوال الجرائد– تأليف: محمد علي الطاهر

– شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام – تأليف :د/ أحمد الشرباصي

–المختارات الشعرية وقضايا الوطن العربي – تأليف: د/ عبد العزيز شرف

بالإضافة لعدد كبير من المقالات التي تحدثت عن المراسلات الشعرية عامة أو عن أحد الشاعرين خاصة بأقلام بعض النقاد الكبار أمثال الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي وغيره كثير .

ولم أقف فيما قرأت عند عمل تخصص في دراسة نقدية للمراسلات الشعرية التي دارت بين البارودي وشكيب أرسلان أودراسة منفردة لرسائل أحدهما ، على ما فيها من ثروة لغوية وأدبية عظيمة الفائدة ، سوى ما وجدته في ثنايا الكتب والرسائل الجامعية عن قدرها ومكانتها الأدبية في دنيا المراسلات الشعرية .

فتناولتُ بالتحليل والنقد هذه المراسلات الشعرية ، ومن خلال هذا التحليل اتضحت جوانب كثيرة في شخصية الشاعرين ، وبطبيعة الحال نهجهما في كتابة الرسائل الشعرية وجمعتُ كل ما توصلت إليه من نتائج في خاتمة البحث بعد أن أفردتُ لتلك النتائج صفحات داخل البحث مفصلة القول فيها بالشواهد والأدلة الشعرية .

وفي رحلة البحث استعنتُ **بالمنهج الفني التحليلي الذي يعتمد في كثير منه على الموازنة النقدية للمراسلات الشعرية عند الشاعرين ورسمتُ خطة البحث كالآتي :**

-**المقدمة وفيها** : سبب اختيارالموضوع والمنهج المتبع فيه والدراسات السابقة ثم خطة البحث.

- **التمهيد : (الرسائل الشعرية بين عراقة الماضي وأصالة الحاضر) وفيه :**

أ-مفهوم الرسائل الشعرية

ب- أركان الرسالة ومقوماتها وأنواعها

ج- الفوائد الأدبية للمراسلات الشعرية

د- تاريخ المراسلات الشعرية في الأدب العربي

-**الفصل الأول (بين البارودي وشكيب أرسلان مراسلات سامية) وفيه :**

أ-البارودي

ب- شكيب أرسلان

ج-المراسلات السامية

-**الفصل الثاني (الدراسة الفنية للمراسلات الشعرية بين البارودي وشكيب أرسلان) وفيه:**

أولا : الرسالة الأولى والرد عليها

ثانيا : الرسالة الثانية والرد عليها

ثالثا : الرسالة الثالثة والرد عليها

رابعا :الرسالة الرابعة والرد عليها

ثم خاتمة ضمّنتها أهم نتائج البحث وتوصياته ، وأخيرا ثبت المصادر والمراجع التي استعنت بها على إتمام البحث .

والتزمت في دراستي بالحد الموضوعي فلم أتجاوز الرسائل الشعرية المتبادلة بين الشاعرين وعددها ثماني قصائد من أصل أربع رسائل فكل رسالة متبوعة بالرد عليها .لم أتجاوز تلك الرسائل إلى غيرها من قصائد الديوان عند البارودي وعند شكيب .

ومما لاشك فيه أن ثمت صعوبات واجهتني أثناء رحلة البحث من أهمها نُدرة المؤلفات التي تحدثت عن فن المراسلات الشعرية بصفة عامة ، وكذلك الرسائل الشعرية المتبادلة بين البارودي وشكيب بصفة خاصة .أضف إلى ذلك صعوبة شديدة في فهم وتحليل رسائل الأمير شكيب على وجه الخصوص . فقد تمسك في رسائله بالغريب من الألفاظ ، وغير المأنوس من المعاني ، والكثير من الصور الآبدة .

وبعدُ ... فهذا موضوعي ، وذاك منهجي ، وذلك جهدي ، لا أزعم أنّي بلغتُ به الكمال ، ولكنّي على ثقةٍ من أنّني بذلتُ طاقتي ، وأخلصتُ لعملي ، وعلى الله إتمام المقاصد .

وهو الهادي إلى سواء السبيل .

(التمهيد)

الرسائل الشعرية بين عراقة الماضي وأصالة الحاضر

أ – مفهوم الرسائل الشعرية :

الرسالة تعني : القطيع من كل شيء هكذا عرّفها ابن منظور[١]، والترسل في القراءة والترسيل هو التحقيق بلا عجلة ، والإرسال والتوجيه . والرسالة في الأصل كلام مكتوب يبعث به إنسان إلى آخر في غرض أغلب ما يكون محض شخصي .

والشهير أن الرسائل تكون نثرا وهي الأكثر تداولا قديما وحديثا ، أمّا أن تأتي شعرا فهي الأقل شهرة. وعندها تخضع الرسالة لما يخضع له الشعر من الاستعانة بأدوات الخيال التي تعكس إحساس الكاتب ، ومن هنا تجدها " تحمل همّا وجدانيا ، ولها وقع محبب في القلوب لما تحمله من دلالات إنسانية عالية ، وتعبر عن نوع من المنادمة بين صديقين أو أكثر ، حيث يطلق شاعر قصيدة معينة في شكل رسالة ، فيرد عليه الآخر شعرا ، بنفس الوزن والقافية والحجم من حيث عدد الأبيات في القصيدة ، وفي ذات الموضوع والغرض ....."[٢]

فما أشبهها بالنقائض الشعرية من حيث البناء الفني لا من حيث الغرض فالغرض الرئيس من النقيضة " الهجاء والفخر " أما في الرسالة الشعرية فيتسع لأكثر من ذلك بحسب الهدف من إنشائها .

كما أنهما يشبهان إلى حد كبير " المعارضات الشعرية " من حيث البناء الفني والشكل العام للقصيدة .

والرسالة من منظور آخر هي : " تلك الدفعات الإبداعية التي تجري بين شاعر وآخر ، أو أكثر حيث تحفل ببوح شفيق يخلق نوعا من التواصل الوجداني تحتشد فيه المفردات الأنيقة في مقام التقارب بين المبدعيين ، ولغة فخمة عالية المستوى "[٣]

ونقول المراسلات الشعرية ، والترسل الشعري " ، ويقصد بالأخير فعل الكتابة بالمشاركة بين الطرفين ، مأخوذ من أترسل ترسلا وأنا مترسل ، وأصل الترسل في الكلام : التوقر والتفهم والترفق من غير أن يرفع المرء صوته شديدا .

والترسل صناعة ومهنة يحترفها من رسخت قدمه في الأدب ، وهذا ما بيّنه ابن طباطبا العلوي حينما بيّن أن الشاعر يسلك " منهاج أصحاب الرسائل في بلاغاتهم ، وتصرفهم في مكاتباتهم ،

---

[١] – لسان العرب – مادة ر. س. ل – طبعة دار المعارف

[٢] – عودة المراسل ات الشعرية – مقال بقلم : علاء الدين محمود – الخليج – مجلة –عدد ٢٠١٨/١٢/٦

[٣] – المقال السابق ذاته

فإن للشعر فصولا كفصول الرسائل ، فيحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامه على تصرفه في فنونه صلة لطيفة ، ..." [١] ولهذا استحق الترسل الشعري أن يكون " المرآة العاكسة للذات الشاعرة وذلك بتصوير ما يختلجها بالجمع بين المتعة الوجدانية ، والمتعة الفنية لتحدث بذلك تأثيرا قويا في نفوس الناس "[٢]

ويُفرّق أحد الكُتاب بين " الشعر الرسائلي ، والرسالة الشعرية " بأن الشعر الرسائلي هو : " ذلك الشعر الذي انبعث من روح الرسالة ، أو تأثر بها ، أو بلازم من لوازمها أو بشيء دال عليها " [٣] أما الرسائل الشعرية فالاهتمام فيها يكون " بالرسالة بعيدا عن الشعر ، فيركز في ذلك على نوع الرسالة وأركانها ، وتفصيلاتها ، دون النظر إلى قيمة الشعر نفسه ، وأثر الرسالة فيه " [٤] فالشعر الرسائلي أعم وأشمل. وذلك بصفته شعرا يستعين فيه الشاعر بتقنيات الرسالة ، أما الرسائل الشعرية فهي أكثر خصوصية وذلك لأن ؛ الشاعر فيها يستعين بتقنيات الشعر وخصائصه ، فالشعرية صفة للرسالة ، والرسائلية نعت للشعر .

وللرسالة مسميات عدة فيطلق عليها " مألكة " والألوكة : الرسالة وسميت بذلك لأنها تلُك في الفم ، والألوك : الرسول قال لبيد :

وغلام أرسلته أمه ..... بألوكٍ ، فبذلنا ما سأل

ويطلق على الرسالة أيضا " المغلغلة " و " الملطة " [٥]

ب- أركان الرسالة ومقوماتها وأنواعها :

للرسالة أركان : راسل مُرسِل ومرسل إليه ورسالة .

ويراعى في كتابة الرسالة الآتي :

١- مراعاة حال المخاطب كل على قدره ، وسيتضح هذا من خلال البحث ، فالأمير شكيب أرسلان في ردّه على رسائل البارودي كان يعرف جيدا مكانة البارودي رب السيف والقلم ورائد مدرسة الإحياء والبعث ، فتراه في كل كلمة من رسائله يجاهد نفسه ، ويغالب قوته ليُظهر براعته

---

[١] – عيار الشعر – تحقيق عباس عبد الساتر – ط – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ص ١٢

[٢] – جمالية فن الترسل الشعري في الأندلس – د/ إبتسام دهينة – بحث منشور بمجلة " إشكالات في اللغة والأدب – الجزائر العدد الثاني – ٢٠٢١

[٣] – شعر رسائلي أم رسالة شعرية – مقال بقلم : د/ فهد البكر – الرياض – صحيفة – عدد محرم ١٤٤٣-٢٠٢١

[٤] – المقال السابق نفسه

[٥] – انظر : جمالية فن الترسل الشعري في الأندلس – د/ إبتسام دهينة

الشعرية والبيانية حتي يكون حقيقا بمراسلة البارودي ومخاطبته فتراه في بعض الأحيان يجافي المعاني المأنوسة ، ويجنح نحو الغريب والبعيد منها ، وينهل من التراث القديم ما وسعه ذلك .

٢- البعد عن التكلف ، وهو الغالب في أسلوب المراسلات – وإن خالف ذلك بعض الشعراء ومنهم الأمير شكيب في الأعم الأغلب من رسائله مع البارودي فذلك قصدا منه للسبب الذي أشرت إليه سابقا – والتحلي بالتعبير الصادق الذي يكشف عن صدق العاطفة والإحساس .

والحق أن العاطفة الصادقة متحققة عند البارودي وأرسلان ، وهذا ظاهر تمام الظهور في كل رسائلهما بلا استثناء . فالحب والود الخالص ، والتقدير الجم واضح تماما في حديثهما .

٣- خلو الرسالة من الحشو والتطويل في الجمل والعبارات ، وكذا الصور والأخيلة ، وقد أفرط أمير البيان في طول رسائله بشكل لافت جدا، وأطلق لنفسه العنان في المقدمات الطللية والغزلية بلا مراعاة لما ينبغي أن تكون عليه الرسالة من الإيجاز والقصر ، فقد بلغت إحدى رسائله أربعة وستين بيتا مما دفع البارودي أن يُطيل هو الآخر في رسائله بعد أن كانت الأولى منها تتجاوز المقطوعة بقليل ، فإذا به يتخلى عن ذلك وتصل رسالته الأخيرة إلى شكيب أرسلان إلى سبعة وأربعين بيتا ، كأننا في سباق شعري ، الفوز فيه لمن لديه القدرة على أن يكون أطول نفسا في كثرة عدد الأبيات !

٤- الوفاء بالغرض الذي من أجله كانت الرسالة . وقد كان الغرض من الرسالة عند البارودي "* مدح شكيب بعراقة أصله ، وبراعة بيانه ، أما عند شكيب فقد تعددت أغراض الرسالة عنده مابين تعزية وتسلية للبارودي ومديحه ، والثناء على شاعريته ، وأضاف في رسالته الأخيرة فخره بنفسه .

ج – الفوائد الأدبية للمراسلات الشعرية :

مما لاشك فيه أن للمراسلات الشعرية فوائد عظيمة يمكن إجمالها في الآتي :

١- أنها تنتج نمطا عاليا من المستوى الأدبي للنصوص الشعرية " حيث يهتم كل طرف بأن يأتي نصه آية جمالية باختلاف المواضيع التي يعالجها ويتناولها ، فالتنافس في الردود بين الشاعرين يقود إلى تجويد وتحسين المفردات الشعرية واللغة والأساليب الجمالية "[١]

٢- أسهمت المراسلات في خلق علاقات تواصل جيدة بين الشعراء مما له أثر بارز في البيئة الشعرية والثقافية ، وإيجاد جو من الصلات الطيبة بين الأدباء والتلاحم النفسي فيما بينهم .

٣- تعتبر المراسلات الشعرية متنفسا عن شيء في نفس الشاعر فيختار صديقا يبدي له شكواه وما يجول بخاطره .

---

[١] – عودة المراسلات الشعرية – مقال بقلم علاء الدين محمود – الخليج – مجلة –عدد ٢٠١٨

٤- المراسلات الشعرية توثيق للتاريخ ، وكثيرمن الشعراء يفتخرون بما دار بينهم وبين غيرهم من مراسلات .خاصة الشعراء الكبار ، وبالفعل هذا ما حدث بين البارودي وشكيب . فقد أبدي الأخير رغبة شديدة في مراسلة البارودي ، فأشاد بذكره ، ومدح شعره في بعض كتاباته في جريدة الأهرام مما دفع البارودي إلى مراسلته شاكرا له على ذلك قائلا:

أشدّت بذكري بادئا ومعقبا ..... وأمسكتُ لم أهمس ولم أتكلّمِ[١]

فرسائلهما الشعرية توثيق لأحداث التاريخ ، حيث تؤرخ للثورة العرابية وما نتج عنها من أحداث انتهت بنفي رجالها ومنهم البارودي .

د- تاريخ المراسلات الشعرية في الأدب العربي :

يكاد لا يخلو ديوان **شاعر جاهلي** من وجود رسالة شعرية- على الأقل - مع تنوعها ، واختلاف الغرض منها. حتى أصبح بالإمكان أن نقول مطمئنين أنها شكلت نوعا أدبيا قائما برأسه. فمن منا لا يعرف رسائل النابغة الذبياني إلى النعمان بن المنذر معتذرا وراجيا العفو والسماح ؟ ورسائلهم كانت تعتمد على المشافهة بدليل قولهم : " أبلغ " و" خبّر " و" بلّغ " وهذا أمر طبعي مع صعوبة الكتابة ، وعدم انتشار وسائلها بل صعوبة الحصول على تلك الوسائل.

من ذلك على سبيل المثال قول زهير بن أبي سُلمى :

ألا أبلغ الأحلاف عني رسالة .....وذبيان هل أقسمتم كل مقسم [٢]

وقول حاتم الطائي :

ألا أبلغا وهم بن عمرو رسالة ..... فإنك أنت المرءُ بالخير أجدرُ[٣]

وقد تنوعت موضوعات الرسائل الشعرية عندهم ما بين التهديد والوعيد ، أو الشكر والثناء ، أو الاعتذار وطلب العفو ، أوطلب الصلح وعقد الهدنة ، وغير ذلك .

فالرسائل الشعرية لم تتوقف طوال العصر الجاهلي " ولم تتخلف عن يوم من أيام العرب في الجاهلية ، ولعلها أيضا لم تتخلف عن يوم من أيام حروب الردة بعد الإسلام ، وما ذلك إلا لأنها كانت الوسيلة الوحيدة الممكنة ؛ لصعوبة الكتابة أولا ولقلة أدواتها ثانيا ولندرة القادرين عليها ثالثا

---

[١] - البارودي - ديوان - حققه وضبطه وشرحه : علي الجارم - محمد شفيق معروف - ط- دار العودة - بيروت- ١٩٩٨ص ٥٥٣

[٢] - زهيربن أبي سلمى - ديوان - شرحه وضبط نصوصه وقدّم له د/ عمر فاروق الطبّاع - ط- دار الأرقم ابن أبي الأرقم - بيروت - لبنان ص ٦١

[٣] - حاتم الطائي - ديوان - ط- دار صادر - بيروت - لبنان ص ٥٢

ولسهولة حفظ أبيات الرسالة الشعرية رابعا ولغياب شخصية الرسول الذي قد يصل ما بين المتحاربين أخيرا " [١]

وفي عصر صدر الإسلام ظهر أثر الإسلام وتعاليمه في الرسائل ظهورا واضحا " حيث غذّاها بالمفردات التي تدل على عمق الشعر الديني ورسوخه ..."[٢]

وفي العصر الأموي انتشر هذا الفن وبرع فيه كثيرون أمثال عمربن أبي ربيعة الذي تحولت القصيدة العربية على يده إلى رسالة يبدؤها بالبسملة أحيانا وذكر اسم المرسل إليه والمرسل وتصف الرسول وبراعته في إيصال الرسالة وكذا الغرض من الرسالة والختام . " وهذا ما يمكن اعتباره تجديدا في بنية القصيدة الأموية على يد عمر بن أبي ربيعة فكان منشىء فن الرسالة القصيدة " [٣] أضف إلى ذلك الرسائل السياسية التي شاعت في هذا العصر نتيجة لكثرة الأحزاب المتصارعة ، والتكتلات السياسية المتناحرة .

وما النقائض إلا رسائل شعرية يرسلها جرير إلى الفرزدق فيرد عليه الفرزدق برسالة شعرية ملتزما فيها الوزن والروي والغرض ، والمعاني المتناولة فيها إلا أنه يقلبها على صاحبها .**وفي العصر العباسي** " تكمن أهمية الرسائل الشعرية بوصفها وسيلة حضارية تطورت ...كثيرا لتسد حاجة من حاجات المجتمع في التواصل فضلا عن كونها وسيلة إيصال وإبلاغ مهمة تفي ببعض مقتضيات العصر ومتطلباته ، وإننا لا يمكن أن نجد ديوان شاعر يخلو من هذه الرسائل التي تقوم على ثلاثة أطراف ، أولها المرسل ، وثانيها الرسالة الشعرية وآخرها المرسل إليه (المتلقي)"[٤] واعتبرت إحدى الباحثات أن " طيف الخيال " الذي شاع لدى شعراء العصر العباسي ما هو إلا " تطورعن فن الرسائل الشعرية التي بدأت ضرورة في العصر الجاهلي ثم أرست تقاليدها فصارت لاحقا رسائل متخيلة ، نهضت بها خيالات الشعراء ، حتى صار طيف الخيال في الغزل من أبرز

---

[١] – الرسائل الشعرية في العصر الجاهلي – قراءة في بدايات النوع الأدبي – بحث مقدم من الباحثة مهى عبد القادر – الجامعة الهاشمية – الأردن

[٢] – الرسائل الشعرية في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي – دراسة موضوعية فنية – بحث مقدم من عبد العظيم السامرائي – جامعة تكريت – العراق ٢٠٠٥

[٣] – جمالية فن الترسل الشعري في الأندلس – د/ إبتسام دهينة ص ٣٠

[٤] – الرسائل الشعرية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري – دراسة موضوعية فنية – بحث مقدم من الباحثة / ميادة حسين جبوري ٢٠١٠– جامعة تكريت ص ٤٤

مجاليها الفنية الناضجة "[١] ومازالت " رسالة الغفران " لأبي العلاء المعري و" رسائل الجاحظ " و " رسائل ابن المقفع "شهودا على نموهذا الفن الأدبي شعرا ونثرا في فترة الخلافة العباسية .

وإذا ولينا وجوهنا نحو الأندلس وجدنا فن" المراسلات الشعرية" ظاهرا على شكل توقيعات الملوك وغيرهم ، ومن الشعراء على شكل دعابة أو فكاهة .

والرسائل المتبادلة بين ابن زيدون وولادة بنت المستكفي شهيرة في صفحات كتب التاريخ الأدبي الأندلسي .

وفي العصر الحديث اشتهرت "المراسلات الشعرية" بين مجموعة من الشعراء الكبار منها ما كان بين مي زيادة وخليل جبران ، وبينها وبين العقاد ، ومراسلات شعرية بين الشاعرين الفلسطينيين محمود درويش وسميح القاسم ، وقد وجدت هذه الأخيرة " صدى عميقا ومؤثرا لدى جمهور الشعر في كل العالم العربي لما تحمله من معان راقية ، وجماليات أخاذة ، ونظم شعري يعكس تجربة الشاعرين في الأدب والحياة " [٢]

وتتوج" المراسلات الشعرية" في العصر الحديث بتلك التي دارت بين البارودي وشكيب أرسلان فكلاهما قامة وقيمة كبيرة في دنيا الأدب والشعر ظهر ذلك بوضوح في الرسائل المتبادلة بينهما .

وإذا نظرنا حولنا الآن أدركنا أن الرسائل بصفة عامة أخذت تتلاشى أمام عصر الرقمنة والوسائل التكنولوجية. مما دفع أحد النقاد أن يصرّح قائلا : إن فن الرسائل عامة في العصر الحديث يتجه " صوب الاندثار ، بفعل عجلة التقدم التكنولوجي الذي لم يؤمّن مكانا ملائما لأنواع أدبية ، ولم تعد أركانها تواكب مقتضيات العصر الحديث بعدما أفضت الطفرات التكنولوجية المتلاحقة إلى تدوين الزمان والمكان الركيزتين الأساسيتين لفن المراسلة ، ليتراجع هذا النوع الأدبي فاسحا المجال لأشكال جديدة من المراسلات وليدة العصر الرقمي بامتياز " [٣]

وأرى أن أدب المراسلات شعرا كان أم نثرا باق لا محالة ببقاء الشعراء والكُتاب على حد سواء ، وإن تغيّر شكلا ومضمونا عن صورته التقليدية القديمة ، فأصبحت وسائل التواصل الاجتماعي مسرحا مفتوحا ليل نهار تُعرض عليه الرسائل بعد أن كانت الأوراق والأحبار والأقلام وسائل شيوعها وأدوات انتشارها ، وإن طغت الرسائل النثرية على أختها الشعرية بطبيعة الحال ، وتبعا لمتطلبات العصر وإيقاعاته السريعة والخفيفة .

---

[١] – الرسائل الشعرية في العصر الجاهلي – قراءة في بدايات النوع الأدبي – د/ مهى عبد القادر – ص ٢٠.

[٢] – عودة المراسلات الشعرية – مقال بقلم / علاء الدين محمود –مجلة الخليج

[٣] – أدب الرسائل .. فن يتلاشى تحت زحف الرقمنة – مقال بقلم / محمد صفوري – العرب الإقتصادية – جريدة – عدد سبتمبر ٢٠٢٠

(الفصل الأول)

بين البارودي وشكيب أرسلان مراسلات سامية

أ – البارودي : ولد محمود سامي في السادس من أكتوبر عام ١٨٣٩م لأبوين من أصل شركسي، كان أجداده ملتزمي إقطاعية إيتاي البارود بمحافظة البحيرة ، كان أبوه ضابطا بالجيش المصري برتبة " لواء " تم تعينه مديرا لمدينتي بربر ودنقله بالسودان ، وهناك توفى ، وكان البارودي حينئذ في السابعة من عمره .

حفظ القرآن الكريم مبكرا وأكب على تعلم اللغة العربية والعلوم الشرعية والتحق بالمدرسة الحربية وتخرج منها وعُين ضابطا .

سافر إلى الأستانة وهناك تعلم اللغتين التركية والفارسية ، ثم عيّنه الخديوي إسماعيل في إدارة المكاتبات للإشراف على الرسائل المتبادلة بين مصر والأستانة .

ارتقى في المناصب فتم تعينه محافظا للشرقية ثم محافظا للقاهرة ، وفي هذه الفترة كانت مصر تعاني من تدخل الإنجليز والفرنسيين في سياستها ، حتى ثار الشعب معلنا رفضه لهذا التدخل وشاركه البارودي بقصائد حماسية تؤيد هذا الرفض وتلهب المشاعرالوطنية .

وتم عزل الخديوي إسماعيل وتولية ابنه توفيق الذي عيّن البارودي ناظرا للمعارف والأوقاف ، وعلّق البارودي عليه آمالا كبيرة ، وطالبه بإصدار الدستور ولكن خابت مساعيه ، وتحطمت آماله في الإصلاح ، وتم تعينه ناظرا للحربية عقب الثورة العرابية فعمل على زيادة رواتب الجند وسرعان ما قدّم البارودي استقالته ، وتتوالى الأحداث ويتم إنتخاب البارودي رئيسا لوزراء مصر على يد مجلس النواب ونتيجة لذلك سميت هذه الوزارة " وزارة الثورة " أو " الوزارة الوطنية " .

وما لبث أن ضاق البارودي ورفاقه ذرعا بالخديوي توفيق وسياسته الفاسدة ، فاتفقوا فيما بينهم على عزله واستغلت انجلترا وفرنسا هذه الخلافات وطالبت باستقالة الوزارة ، وانتهت الأحداث بالقبض على زعيم الثورة العرابية ورفاقه وحُكم عليهم بالإعدام ثم خُفف الحكم إلى النفي المؤبد فنُفي البارودي إلى جزيرة " سرنديب " سيرلانكا حاليا ، وظل في منفاه يعاني الوحدة وآلام البعد عن الوطن والأهل سبعة عشر عاما .

وهناك في سرنديب تعلّم اللغة الانجليزية واهتم بتعليم أهل الجزيرة اللغة العربية وتبنى فيها الدعوة إلى الإسلام إلى أن جاء عام ١٨٩٨عاد البارودي إلى القاهرة ، وقد ضعُف بصره ، ووهن عظمه ، واعتلت صحته فاعتزل الحياة السياسية ، وفتح داره لأدباء وشعراء عصره أمثال شوقي وحافظ وغيرهما إلى أن وافته المنية في الثاني عشر من ديسمبر سنة ألف وتسعمائة وأربعة من الميلاد

تاركا وراءه ديوانا ضخما من جزئين كتب مقدمته بنفسه يجمع بين دفتيه شعرا راد به مدرسة الإحياء والبعث فكان سببا في بعث الشعر بعد غفوته ، وإيقاظ الهمم الشعرية من سباتها العميق .

وعن هذا الديوان كتب كثير من النقاد ، فقال عنه مطران : " أما شعره فهو بجملته صناعة لا تنافس بقديم أو حديث مع ابتكار قليل وإحساس فياض . اختار له أحسن أساليب العرب وأفصح ألفاظهم وتغنى بها على وحي نفسه ونفسه جارية النغمة وعاشقة الإيقاع ... فشعره إنما هو الصناعة والإيقاع " [١]

وفي مقدمة الديوان يتحدث البارودي عن صفات الشعر الجيد فيقول : " ...وبعد فإن الشعر لمعة خيالية يتألق وميضها في سماوة الفكر ، فتنبعث أشعتها إلى صحيفة القلب ، فيفيض بلألأتها نورا يتصل خيطه بأسلة اللسان ، فينفث بألوان من الحكمة ينبلج بها الحالك ، ويهتدي بدليلها السالك ، وخير الكلام ما ائتلفت ألفاظه وائتلفت معانيه ، وكان قريب المأخذ ، بعيد المرمى ، سليما من وصمة التكلف ، بريئا من عشوة التعسف ، غنيا من مراجعة الفكرة فهذه صفة الشعر الجيد " [٢]

وللديوان مقدمة أخرى كتبها الناقد محمد حسين هيكل وصف فيها شعر البارودي بعبارات موجزة تحمل في طياتها معاني كثيرة حيث قال : " شعر البارودي حياته ، فكل قصيدة في ديوانه صورة لحاله وللبيئة التي أحاطت به ، والنهضة المتوثبة في الحياة حوله ، وللثورة التي تمخضت عنها تلك النهضة والثورة كلتيهما ، والتي نقلت الشاعر من وطنه إلى منفاه ليقيم به سبعة عشر عاما وبعض عام ، يستأثر الشعر بها جميعا " [٣]

الحديث عن البارودي وشعره لا ينتهي فهو بلاشك قامة كبيرة وقيمة عظيمة في حياة الأدب عامة والشعر منه خاصة . [٤]

---

[١] – المختارات الشعرية وقضايا الوطن –د/ عبد العزيز شرف – ط– دار قباء – القاهرة ٢٠٠٠ – ص ٢٨

[٢] – البارودي – ديوان – المقدمة – بقلم البارودي ص ٣٣، ٣٤

[٣] – البارودي – ديوان – المقدمة – ص ٥

[٤] – لمزيد من التفصيل عن البارودي وشعره راجع :

– محمود سامي البارودي – رائد الشعر العربي في العصر الحديث – محمد إبراهيم سليم ط– دار الطلائع ٢٠٠٩=

= محمود سامي البارودي – عمر الدسوقي –ط– دار المعارف –مصر

– محمود سامي البارودي شاعر النهضة – علي الحديدي ط– مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٠

– البارودي فارس الشعراء – أحمد سويلم –ط– الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٧

ب- شكيب أرسلان :

آثر الأمير شكيب أرسلان أن يكتب بنفسه سيرة حياته بالرغم من تردده في بداية الأمر في كتابتها ؛ فقد رأى أن هذا فعل العلماء وأمثالهم ورأى نفسه أقل منهم ، وبعد تفكيرعميق استقر أن يكتب عن نفسه وبيّن السبب في ذلك بقوله : " ولكني رأيت بعد التروي أني مهما اجتهدت في محو نفسي ، وحاولت إلقاء ستار الإهمال على تاريخ حياتي ، فلن يعدم الميدان أناسا يجولون في هذا الموضوع من بعدي ، فيخبطون فيه خبط عشواء ، ويزيدون وينقصون بغير علم " [١]

وقد كان الأمير حكيما في هذا ، فلم يترك الأمر لمحب يصفه بأحسن الصفات ، أو مبغض له فيسترسل في خبره بما لم يكن فيه " ومن طبيعة البشر أنهم يقعون في رجال السياسة ورؤساء الأحزاب أكبر ما يقعون في غيرهم ، .... ولذلك رأيت بعد التأمل أني لا أسيء عملا إذا ترجمتُ نفسي بنفسي ، وحررتُ ذلك بقلمي ، حتى لايكون مجال للأخذ والرد في ما يأثره عني الآثرون بعد وفاتي ، وعندما لايكون أمامهم غيررفاتي " [٢] وفيما يبدو أنه كان مبتلى بالشائعات التي تنال منه ومن انتمائه لوطنه فيروي كثيرا من القصص التي تؤكد ذلك فيقول بعد أن عرض جانبا منها أثناء كتابته سيرة حياته " لهذه الأسباب وأمثالها تراني كاتبا هذه الترجمة ، تاركا للرأي العام ، وللتاريخ ، ولأصحاب المعلومات المتعلقة بهذه الحوادث ، ولأرباب البصائر على وجه الإجمال أن يحكموا بما يرونه فيها والله خير الشاهدين " [٣]

وعن مولده قال : في أول ليلة من رمضان سنة ١٢٨٦ – ١٨٣٨ ولد شكيب بن حمود بن حسن يونس بن فخر الدين الأرسلاني في قصبة " الشويفات " من جبل لبنان سليل الأمراء والوجهاء لأخوة أربعة ترتيبه الثاني بين إخوته .

حفظ القرآن الكريم على يد كبار مشايخ بلدته ، وتعلم في مدارس لبنان الحكومية ثم في إحدى المدارس الأمريكانية .تعلّم اللغة التركية في المدرسة السلطانية بالإضافة إلى بعض العلوم الشرعية ، وفي ذلك الوقت كان الشيخ محمد عبده مدرسا بتلك المدرسة ، وانبهر به الأمير شكيب وقال عنه : " ... فرأينا فيه – يقصد الإمام محمد عبده – عالما لا كالعلماء الذين نعهدهم ، بل عالما جمع بين العلوم العقلية والنقلية إلى الأمر الأقصى ، ونظر إلى جميع الأشياء نظرالفيلسوف الذي نظره يعلو على الأنظار المعتادة "[٤] ، وكان بين الإمام ووالد شكيب علاقة مودة ومحبة ، وكان

---

[١] – الأمير شكيب أرسلان – سيرة ذاتية – ط- الدار التقدمية ط- ١ – ٢٠٠٨ ص ٣٧

[٢] – السابق ص ٣٧

[٣] – السابق ص ٣٨

[٤] – السابق ص ٤٣

الإمام يزورهم ويمكث عندهم في منزلهم . مالت نفس شكيب إلى حب اللغة العربية ودراستها ، نظم الشعر وهو في الثانية عشر من عمره ، وشارك كبار الشعراء في نظم القصائد رغم حداثة سنه، وبلغ به الأمر أن أنكر كثيرون أن يكون هو ناظمها لسلامة ألفاظها نحوا وصرفا ووزنا ، وكان ينفي هذا الإفتراء عن نفسه بأن يطارحهم الشعرأو يرد عليهم بشعر من نظمه . من ذلك قوله مخاطبا إياهم :

ولقد يلوح البدر قبل تمامه ..... ويفوح عرف الورد في الأكمام

أنا شاعرٌ لكنْ بتقصيري وإنْ ..... أقف الزمان على ثناك ملامي [١]

نشر وهو في سن السادسة عشر من عمره مقالات في "جريدة التقدم " ثم في مجلة " الطبيب " وعندما بلغ سبع عشرة سنة نشر ديوانه الأول " الباكورة " مصدرا إياه بقصيدة في مدح الإمام محمد عبده ، وكان ذلك قبل عشر سنين من إصدار شوقي ديوانه الأول " الشوقيات " وعن ديوان " الباكورة " يقول د/ سامي الدّهان : " نظم شكيب أرسلان ديوانه الأول "الباكورة " فلا تجد فيه وزنا مختلا أو قافية متكررة وذلك لايقع إلا للنوابغ من الناشئين يستقي من شعر العباسيين صورهم وألفاظهم وكثيرا من أساليبهم " [٢] والجدير بالذكر أن الأمير شكيب ينتمي إلى طائفة " الدروز" اللبنانية .[٣]

كان للشيخ " محمد رشيد رضا " الفضل الأول في تلقيبه بأمير البيان وذلك من خلال رسالة أرسلها لشكيب في ١٩٢٤حيث قال في بدايتها : " سيدي الأخ الكريم والولي الحميم أمير البيان حياه الله تعالى ..." [٤] وللأمير ألقاب أخرى منها : " كاتب الشرق الأكبر "و " أمير كُتاب العرب " و" أديب العصر " وغيرها كثير . [٥]

---

[١] – السابق ص ٤١

[٢] – الأمير شكيب أرسلان حياته وآثاره – ط– دار المعارف – مصر ١٩٦٠ص١١٢

[٣] – طائفة الدروز اللبنانية من أقوى أنصار الدولة العثمانية ، ولهم نفس قوة المارونيين في جبل لبنان ولكن بدا منهم الضعف بعد امتياز لبنان فصار المتصرفة أغلبهم كاثوليك فاضطروا إلى مولاة أهل السلطة ليحفظوا مابقي لهم . وهم فئتان" جنبلاط ويزبك – موسوعة ويكيبيديا

وعلى الرغم مما اشتهر به طائفة الدروز من بعض الأفكار التي تخالف تعاليم الإسلام ترى شكيب يؤكد على أنه كان إسلاميا معتدلا كما أكدت زوجه أنه كان سُنيّا وإن انتسب سياسيا وإداريا إلى الدروز وزوجه كانت سُنيّة أيضا صرّح بذلك د/ أحمد الشرباصي بعد مقابلة شخصية مع زوج شكيب في جبل لبنان . – راجع : أمير البيان شكيب أرسلان – د/ أحمد الشرباصي ط– مطابع دار الكتاب العربي – مصر ط١– ص ٧٤

[٤] – السابق ص ٢٣٦

[٥] – السابق ٢٣٨

صرّح الأمير شكيب أنه إلى النثر أميل منه إلى الشعر حيث قال : " وكان الغالب علي الميل إلى النثر ، لاسيما النوع المرسل منه ؛ وقد سُئلت مرة أيام كنت في شرخ الشباب أيهما أحب إليك ، النظم أو النثر ؟ فأجبت : إني أستحي أن أكون شاعرا وأفتخر بأن أكون كاتبا " [١] ويعلل لذلك بأنه رأى الشعراء يمتهنون الشعر ويقصدون منه المدح أو الذم لا حُبا بالحقائق بل حُبّا للجائزة وحطام الدنيا فساءت سيرة الكثيرين منهم وشوّهوا سمعة الشعر . [٢]

تولى أمر" الشويفات" خلفا لوالده ثم اعتذر عنها ؛ لأنه كان طامحا لما هو أعلى فقصد الأستانة مرورا بمصر ، ونزل عند الإمام محمد عبده ضيفا عليه وهناك تعرّف على سعد زغلول في شبابه قبل أن يصبح زعيما للمصريين ثم سافر إلى الأستانة ، ومكث بها نحو سنتين فتوثقت صلته بكبارالقوم وصفوة المجتمع ، ومن الأستانة إلى أوربا متجولا بين مُدنها المختلفة ، وفي باريس يقابل " أحمد شوقي " وهو مازال في بداية شهرته ، وانعقدت بينهما ألفة بلا كلفة ، وقد أشار شكيب على شوقي أن يطلق على ديوانه الأول " الشوقيات " ناهيك عن صداقته لصاحب " المنار " الشيخ محمد رشيد رضا ، طاف بالعديد من الدول الأوربية وأقام فيها بدور المبعوث السياسي من قبل مسؤول السلطة بجبل لبنان ، كما شارك في العديد من المؤتمرات الدولية و طالب فيها باستقلال سوريا ولبنان وفلسطين وإلغاء الانتداب .عاد إلى وطنه في سنة ١٩٤٦ وسعد بمشاهدة لبنان حرا طليقا من أغلال الاحتلال . وتحرك أهل لبنان والبلاد العربية للقائه بعد عودته وظل فترة يزور ويزار ، وما لبث أن اجتمعت عليه مجموعة من الأمرض منها تصلب الشرايين والنقرس والرمل بالكليتين وكبر السن .

وفي التاسع من كانون الأول سنة ١٩٤٦ وافته المنية وقد طعن في السن ، وقال قبل وفاته إنه سعيد لأن ثمرة نضاله قد تحققت في الدفاع عن الإسلام والعروبة وتجلى ذلك في الاستجابة لما كان ينادي به من تأسيس الجامعة العربية .[٣] وعن أثر نبأ وفاته على الأمتين العربية والإسلامية يقول محمد علي الطاهر : " لقد اهتز العالم الإسلامي على الأمير شكيب جزعا ولهفة ، من مشرقه إلى مغربه ، ففاضت أنهر الصحف بما خطته الأقلام عنه وما سطّرته عن سيرته وعن وقع الخبر في قلوبهم ونفوسهم على فقده ، وقد بادر محبوه في جميع أنحاء الأرض إلى تأليف اللجان لإقامة حفلات التأبين لرثائه والبكاء عليه وذكر أعماله وترديد مآثره " [٤]

---

[١] – الأمير شكيب أرسلان – سيرة ذاتية ص ٤٣

[٢] – السابق ص ٤٣

[٣] – السابق – المقدمة

[٤] – ذكرى الأمير شكيب أرسلان – المراثي وحفلات التأبين وأقوال الجرائد – صنّفها ووقف على طبعها محمد الطاهر – القاهرة ١٩٤٧ص ٥

وقد استطاع الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي أن يجسد حزن الأدب العربي ورجاله على فقد أمير البيان عندما كتب معبرا : " ما عسي أن أقول في هذا الرجل ، وقد كان أمة وحده تسعى وراء العظائم ، وتضطلع بما تنوء به شم الفيالق ، وهو فوق ذلك بحاثة قدير تسير مؤلفاته مسير الشمس في الكون ، وناثر موهوب تتزاحم عليه المعاني الفائقة فيختار منها كل جميل فائق ، وشاعر مطبوع تتطامن له رقاب القوافي ، ويسلسل لديه كل أبي جموح " [١]

أصدر الأمير شكيب ديوانه في سنة ١٩٣٥ ويصدّره بقول مطران عنه وإعجابه بشعره حيث قال " حضري المعنى ، بدوي اللفظ ، يحب الجزالة حتى يستسهل الوعورة . فإذا عرضت له رقة وألان لها لفظه فتلك زهرات ندية ملية شديدة الرّيا ساطعة البهاء كزهرات الجبل ... غير أنه لم يلبث أن ترك الشعر وانصرف إلى الترسل فحبس فيه ما أوتيه من العبقرية فهو الآن في مذهبي إمام المترسلين . على أنه قد يدعوه داع من النفس أو من الطوارئ فينظم كما ينثر فياض الفكر من غير تعب ، لكن نظمه يحمل في عهده الآخر أثرا من نثره " [٢]

فحكم على معانيه وألفاظه ، أما معانيه فحضريّة وأما ألفاظه فبدوية فجمع بين الأصالة والمعاصرة فامتلك بذلك أسباب البيان والطبع في الشعر لأنه يعبر عن الأفكار والمعاني التي يعيشها ويتفاعل معها بلسان عربي فصيح قوي لا ينفصل عن عُرى الأقدمين وثيق الصلة بهم وبلغتهم التي ميزتهم عن غيرهم ، وليس ذلك دوما فقد يعرض له عارض من رقة فإذا به يعبر بألفاظ تشاكل تلك الرقة وتشبهها .

يخص أمير البيان القسم الأول من ديوانه بتلك المراسلات الشعرية التي دارت بينه وبين البارودي وهي عبارة عن أربع رسائل والرد عليها، القصائد الثلاث الأولى من البارودي لشكيب ثم رد شكيب عليها، والقصيدة الرابعة من شكيب ثم رد البارودي عليها ، واختار لهذا القسم من الديوان عنوان " المراسلات السامية " نسبة إلى محمود سامي البارودي ، من باب التباهي والشرف بمراسلته إياه .

وفي القسم الثاني من الديوان تلتقي بـ " مساجلات شعرية ومفاكهات أدبية " جرت بينه وبين فريق ممن اتصل بهم أو تصادق معهم ثم ينتقل إلى المدائح فيمدح الخديوي توفيق وحافظ إبراهيم ، وأحمد شوقي ، و خليل مطران ، وعبد الله البستاني[٣] ،

---

[١] – الذكرى الأولى – شكيب الشاعر – مقال بمجلة الرسالة عدد ديسمبر ١٩٤٧

[٢] – الأمير شكيب أرسلان – الديوان – المقدمة – ط– مؤسسة هنداوي

[٣] – عبد الله البستاني : عبد الله بن ميخائيل بن ناصيف البستاني لغوي ، شاعر ، معلم ، أديب لبناني ، غزيرالإنتاج ، واسع المعرفة والاطلاع . ولد بالشويفات بلبنان عام ١٨٥٤. أهم عمل قام به هو تأليفه " معجم البستان " في مجلدين . كما ألف أربع مسرحيات نثرية ، وخمس مسرحيات شعرية توفي عام ١٩٣٠– راجع : أعلام الأدب والفن – تأليف أدهم الجندي – ط– مطبعة مجلة صوت سوريا – دمشق –الجزء الثاني

وعبد الحميد الرافعي [١].

وفي القسم الثالث ينتقل إلى "الرثاء" فيرثي أحمد فارس الشدياق[٢] ، ومحمود إبراهيم فخري[٣] ، والبارودي ، وغيرهم .

والقسم الرابع يخصه بالمدائح السلطانية وشئون السياسة العثمانية وانخراطه فيها .

يعتبر ديوانه صغيرالحجم بالنسبة لما كان منتظرا منه فالديوان كله يقع في مائتي صفحة بما فيه من شعر الباكورة ، ويخلو من قصائد الهجاء ؛ فقد كان يكرهه ولا يرتضيه كما صرّح بذلك في مقدمة ديوانه ، والجدير بالذكر أن لأمير البيان العديد من المؤلفات المهمة منها : " لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم " و " شوقي أوصداقة أربعين عاما " و" الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية " في ثمانية أجزاء .

وألمح شبها بين البارودي وشكيب من حيث النشاة والتكوين والمستوى الاجتماعي ولعلهما أدركا ذلك أو أدركه أحدهما فهواهما واحد ، ومشاربهما واحدة في الثقافة والفكر والاجتماع فهما يشتركان في الأصول الشركسية ، والتربية في ظل عيش وفير ورغد ووجاهة ، وإذا كان البارودي رب السيف والقلم فإن شكيب أمير البيان ، وكلاهما يتفقان في النزعة الدينية ، وحب اللغة العربية ، واحترام التراث وتقديره ، وقد ظهرذلك بوضوح فيما دار بينهما من مراسلات شعرية .

ج- المراسلات السامية :

واحدة من أكثر المراسلات الشعرية شهرة في العصر الحديث ولبدايتها قصة ، يُحكى أن الأمير شكيب أكثر في كتاباته من الاستشهاد بأبيات شعرية للبارودي ، وأشاد بها أيما إشادة على غيرمعرفة شخصية سابقة بينهما، فكتب إليه البارودي رسالة شعرية يشكره فيها ، ويمدحه بنباهة الفرع وعراقة الأصل وبلاغة القول قائلا :

أشدتَ بذكري بادئا ومعقبا ..... وأمسكتُ لم أهمس ولم أتكلّم[٤]

---

[١] – عبد الحميد الرافعي : شاعر غزير المادة ، عالج الأساليب القديمة والحديثة من أهل طرابلس الشام مولدا ووفاة ، تعلّم بالأزهر الشريف ، ومكث مدة بمدرسة الحقوق بالاستانة ، وتقلّد مناصب في العهد العثماني – الأعلام – الزركلي – طبعة دار العلم للملايين – بيروت – لبنان – ج ٣

[٢] – أحمد فارس الشدياق : ولد في ١٨٠٤من أوائل الأفذاذ الذين اضطلعوا برسالة التثقيف والتوجيه والتنوير والإصلاح في القرن التاسع عشر غير أن معظم الدراسات التي تناولته عُنيت بالجانب اللغوي والأدبي توفي عام ١٨٨٧– الأعلام – الزركلي ج١

[٣] – محمود إبراهيم فخري : لم أعثر له على ترجمة

[٤] – البارودي – ديوان– ص ٥٥٣

فأجابه شكيب بقصيدة من أربعين بيتا فاض عليه فيها بالمديح والثناء بطيب الأصل وفصاحة اللسان وبيان القول . فالظاهر أن البارودي هو من بدأ بالمراسلة ، وإن كانت الحقيقة أن شكيب هو من لوّح بها في مقالاته ثم دارت الرسائل الشعرية بينهما .

قدّم أمير البيان لهذ المراسلات في ديوانه بقوله : " أريد بها ما دار بيني وبين أمير الشعراء في وقته ؛ محمود سامي باشا البارودي ، رئيس نُظّار مصر سابقا ، وذلك لمّا كان في منفاه بسيلان على إثر الحادثة العرابية ، وقد كانت فُقدت من عندي بعض هذه المراسلات ، فاضطررت إلى طلب مجلة الزهور الأدبية من مصر ؛ لأنها كانت قد نشرتها ؛ وهكذا عثرت عليها كلها ما عدا قصيدة ميمية كنت بعثت بها إلى محمود سامي سنة ١٩٠٢من طبرية حيث كنت أبدل الهواء . وأما جواب محمود سامي على هذه القصيدة فقد وجدته بين أوراقي ... "[١]

وقد رأى البارودي في كتابات شكيب أسلوبا يشبه أسلوبه في الشعر من حيث جزالته وفخامته ، والتمسك بالتراث الشعري القديم والسير على منواله ، فأرسل يكاتبه معجبا بطريقته في الكتابة على ما بينهما من تقارب في السن والمكانة الاجتماعية إلا أن البارودي كان أسبق من شكيب في تحقيق المكانة الأدبية العظمى بين أقرانه وشعراء عصره .

يقول الدكتور سامي الدهان عن العلاقة التي جمعت بينهما " جارى شكيب أمير الشعراء البارودي – كما سماه – واتخذه أستاذا وإماما لأنه أسن منه وأطول باعا في الشعر وأكثر غوصا على المعاني وتعلقا بأساليب العباسيين ، فأفاد منه وحاذاه وارتقى ببيانه واستقى من معينه كما استقى شوقي وحافظ وغيرهما " [٢]

والحق أن البارودي لم يكن أسن من شكيب فبينهما في حساب السنين سنة واحدة فقط ، فقد ولد البارودي عام ١٨٣٨ بينما ولد شكيب في ١٨٣٩وقد عاش شكيب بعد وفاة البارودي ما يقرب من أربعين عاما حيث توفي شكيب في ١٩٤٦ . أما وقد فاق البارودي صديقه شكيب في المكانة الأدبية ، وحاز فضل السبق فيها فهذا محقق بلا شك ، وقد اعترف شكيب أن البارودي استاذه بلا منازع حيث قال : " فلما قرأنا شعر محمود سامي البارودي سكرنا بأدبه ، ورقصنا على قصبه ، وبعث لنا نشأة روحية لم نعهدها في أنفسنا من قبل أن عرفناه ، وعلمنا أن في المعاصرين من قدر أن يضارع الأولين ، وأن يسامي بنفسه أنفسهم . وكنا قبل البارودي نظن الأولين غاية لا تدرك ،

---

[١] – الأمير شكيب أرسلان – الديوان – ص ١٣

[٢] – الأمير شكيب أرسلان حياته وآثاره – د/ سامي الدّهان ص ١٢٧

وأنهم إذا قرن بهم المتأخرون أو المعاصرون كان أولئك هم السماء وهؤلاء هم الأرض ، وبقى فينا هذا الاعتقاد إلى أن ظفرنا بشعر محمود سامي ... " [١]

وأرى أن شكيب قصد أن يبني لنفسه مجدا أدبيا يضاف إلى مجده عن طريق استشهاده بشعر البارودي والإشادة به مما دفع البارودي لمراسلته شعرا شاكرا له على تلك الإشادة فإذا به يجاهد نفسه ، ويستجمع كل قواه الأدبية ويستعرضها أمام البارودي وغير البارودي من شعراء عصره . ويظهر ذلك تماما من خلال دراسة تلك المراسلات الشعرية المتبادلة بين الرجلين فقد عمد شكيب إلى الإطالة في مراسلاته مع البارودي ، والتمسك بالألفاظ القوية الجزلة ، والمعاني التي يخفى على الأريب مقصوده منها إلا بعد زيادة في التأمل ومعاودة النظر فيها ، وكذا الصور الشاردة بعيدة الغور والتي قلما تتضح للقارئ من الوهلة الأولى .وقبل ذلك فقد خص تلك المراسلات بالقسم الأول من الديوان مصدرا بها أشعاره وقصائده ومعنونا إياها بـ " المراسلات السامية " نسبة إلى محمود سامي البارودي تفاخرا وتباهيا ، واعترافا ضمنيا منه أنها أفضل ما في الديوان .

وقد أشار د/ أحمد الشرباصي إلى بعض من هذا قائلا : " لعل شكيب قد أخذ يحس بشخصه أمام شخصية البارودي الضخمة ، بعد أن بذل جهده في أن يسمو بشعره إلى مستوى شعر البارودي أو ما يقاربه ... " [٢]

تبارى الرجلان في نظم الرسائل الشعرية الطويلة، فيرسل البارودي لشكيب رسالة من خمسين بيتا فيرد شكيب على رسالة البارودي بقصيدة من ستين بيتا ، وهكذا حتى كانت الرسالة الرابعة والأخيرة التي بعث بها شكيب إلى البارودي تعزية له في وفاة كريمته بعد عودته إلى وطنه، ضاع من شكيب معظم أبياتها ، فقد كان رد البارودي عليها في رسالة من خمسة وأربعين بيتا.

قال شكيب مؤكدا على مكانة البارودي عنده : " أشعر الشعراء عندي هو محمود سامي البارودي ، ثم شوقي ، ثم حافظ ، وهؤلاء الثلاثة في هذا العصر هم السابقون في حلبة الشعر ، الفائقون في إجادته " [٣] أطلق شكيب على البارودي أمير الشعراء في عصره [٤]، وكان ذلك قبل أن تتجلى عبقرية شوقي في الشعر ويتم مبايعته بإمارة الشعر العربي .

وعن أثر هذه المراسلات على شكيب وشعره يقول الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي : " ... هذا وقد اتصلت المراسلات بين الشاعرين فترة غير قصيرة كان لها أثرها البين في عظمة الأمير

---

[١] – شوقي أو صداقة أربعين سنة – تأليف شكيب أرسلان – ط– مطبعة عيسى البابي الحلبي – مصر – ص ١٠١

[٢] – أمير البيان شكيب أرسلان – د/ أحمد الشرباصي – ص ٢٥٦

[٣] – شوقي أوصداقة أربعين سنة – ص ٨٨

[٤] – السابق ص ٩٢

فقد تلفت الدهر بعينيه إلى من يحظى بمساجلة البارودي العظيم ، وتطلع محبو الأدب في شتى بقاع العربية إلى الشاعر الجيد يحفظون قصائده ، ويقتنصون فرائده ، ويوازنون بين نثره ونظمه فيجدونه أهلا للحمد والإطراء وهذا بلا شك غنم كبير فاز به الأمير " [١]

وأرى أن البارودي قد استفاد هو الآخر من مراسلاته مع شكيب، فقد احتل الأمير شكيب مكانة كبيرة بين أدباء عصره وما بعد عصره . وهي مكانة لاتقل أهمية عما وصل إليه البارودي ، ربما احتاج الأمير شكيب لمراسلة البارودي في بادىء الأمر وقتما كان البارودي إمام مدرسة الإحياء والبعث و شهرته تملأ الآفاق ، محققا مجدا أدبيا سابقا على مجد الأمير شكيب الذي استطاع فيما بعد أن يحقق مجدا أدبيا وسياسيا واجتماعيا سارت بذكره الركبان .

[١] – الذكرى الأولى – شكيب الشاعر – مقال بمجلة الرسالة عدد ديسمبر ١٩٤٧

(الفصل الثاني)

(الدراسة الفنية للمراسلات الشعرية بين البارودي وشكيب)

أولا : **الرسالة الأولى من البارودي إلى شكيب**[1] :

أرسل البارودي إلى شكيب أرسلان رسالة شعرية بدأها بقوله :

أشدتَ بذكري بادئا ومعقّبا ..... وأمسكتُ لم أهمُس ولم أتكلمِ

أ – نثر الأبيات نثرا أدبيا : بدأ البارودي رسالته بالحديث عن الدافع الذي من أجله أرسل هذه الرسالة إلى شكيب أرسلان قائلا :

لقد أشدت بشعري مرة بعد مرة وأمسكتُ عن الكلام أوالتعقيب ، ومنعتُ نفسي من الرد ، وما كان هذا بُخلا مني بالجواب . وكيف لي أن أفعل ذلك ؟ وما كان لي أن أفعله وقد وهبتني محبتك وتقديرك لشخصي وشعري وأعلنتَ عن ذلك صراحة ولكني تهيّبتُ الرد. أما وقد وجب عليّ رد الفضل والإحسان لأصحابه فالشكر واجب لجميل صنعك ، وأنت صاحب الفضل متقدّم فيه ، وهذا مالا ينكره أحد ولا يستطيعه . دعائي لك أن تشملك الفضيلة بحُللها السابغة ، وتقبل مني هذه الرسالة المنظومة يُزيّنها شُكرك والثناء عليك .

ب– الرسالة من حيث الأفكار والمعاني :

أرسل البارودي ببرقية شكر خاطفة إلى شكيب أرسلان ضمّنها عدة أفكار ومعان يمكن إجمالها في الآتي :

أ – الإشارة إلى الهدف من الرسالة وهو شكر شكيب على الإشادة بشعر البارودي وكثرة استشهاده به حيث قال :

أشدّت بذكري بادئا ومعقّبا ..... وأمسكتُ لم أهمس ولم أتكلّمِ

ب– إمتناع البارودي عن إجابة شكيب في بداية الأمر، وتبرير ذلك بأن التأخير في الرد ليس كما قد يتوهم البعض تكبرا أوغرورا أو بُخلا وإنما تهيّب من البارودي في الرد حيث قال معلنا :

وما ذاك ضنّا بالوداد على امرئٍ ..... حباني به لكن تهيّبتُ مقدمي

ج– الاعتراف بأن رد الجميل والشكرعلى الإحسان واجب من البارودي في حق شكيب ويلزم عليه ذلك حيث قال معترفا :

فأمّا وقد حقّ الجزاءُ فلم أكن ..... لأنطق إلا بالثناءِ المنمنمِ

---

[1] – البارودي – ديوان– ص ٥٥٣

د- إثبات الفضل لشكيب فهو أهله ومستقره ، وهذا من الثوابت ، ولا يستطيع أحد إنكاره ، والفضل دائما للمتقدّم حيث قال مصرّحا :

لك السبقُ دوني في الفضيلة فاشتمل .....بحُلّتها فالفضل للمتقدّمِ

هـ- مدح البارودي أبياته تلك واعتبرها " حبيرة من النظم " يُزيّنها مديح شكيب والثناء عليه حيث قال مفاخرا :

ودونكها يابن الكرامِ حبيرة ..... من النظم سدّاها بمدح العُلا فمي

ج - الرسالة من حيث الألفاظ والأساليب :

ألفاظ الشاعر في الرسالة لا تخرج عما تميّز به شعره عامة من جزالة الألفاظ ، ووضوح المعانى ، ناهيك بالرقة الظاهرة ، والتلطف الواضح في مجمل ألفاظها ، ناسب ذلك كله الغرض الذي من أجله نُظمت ألا وهو الشكر والثناء ، مع تضمين الاعتذار عن عدم الإسراع في الرد . والوضوح سمة غالبة في ألفاظ الرسالة فلم أعثر فيها على لفظة نابية أو غريبة .

بدأ البارودي رسالته بقوله " أشدّتَ " مخاطبا الأمير شكيب ، ثم أتبع ذلك بقوله " وأمسكتُ " يقصد نفسه . فكان من شكيب الإشادة وكان من البارودي الإمساك عن الرد ، والطبعي أن الإشادة يقابلها في الحال والتو الشكر والثناء ، أما وقد قابلها البارودي بالإمساك عن الرد والتعقيب فقد احتاج ذلك إلى الكشف عن السبب في تأخير الرد ، وتبرير هذا الحدث الذي خالف به البارودي العرف والعادة السائدة في الغالب ، أضف إلى ذلك أن إمساكه كان شاملا ومؤكدا " همسا وكلاما " فاحتاج الأمرإلى توضيح وتفسيرأو بمعنى آخر إجابة عن سؤال أثاره البيت الأول مفاده : لمَ الإمساك عن التعقيب والرد ؟ فجاءت الإجابة في البيت الثاني توضح وتفسر وتعلل سبب ذلك بقوله :

وماذاك ضنا بالوداد ..... لكن تهيّبتُ مقدمي

وقد أردف البارودي بعد الانتهاء من هذه الرسالة مؤكدا على المعنى السابق بقوله ناثرا : " هذه الأبيات تفطّرت بها القريحة بعد العُقم ، وتنفست لها الطبيعةُ بعد معاناة السّقم . جعلتُها شكرا لما قرأتُه في الأهرام من عواطف البر والإكرام ..."[١]

وقوله في البيت الثالث :

فأمّا وقد حقّ الجزاء فلم أكن ..... لأنطق إلا بالثناء المنمنمِ

[١] - البارودي - ديوان - ص ٥٥٤

" أما ..." تفصيل بعد إجمال وتوضيح بعد إبهام وقوله : " وقد حَقّ الجزاء فلم أكن ..." جعل الثناء والشكر لأمير البيان حقا واجبا مُؤكّدا على هذا بعدة مؤكدات تنعكس بدورها على تأكيد المعنى هي : " قد" والفعل " حقّ" واختار له التعبير بصيغة الماضي ليدل بذلك على أن الثناء والشكر كان حقا لازما منذ وقت بعيد ، لذا آثر أن يكون ثناؤه موصوفا بأنه " الثناء المنمنم " أي المُزيّن المزخرف حبا وكرامة وتقديرا للمُهدى إليه .

وقوله في البيت الرابع " وكيف أذود الفضل عن مستقرّه ؟.. ..." الاستفهام غرضه النفي ولم يقصد من ورائه طلب الفهم . فخرج به من معناه الحقيقي إلى معنى آخر مجازي فنفى عن نفسه أن يكون ممن يذود الفضل عن أهله وذويه ، وبالمثل في قوله : " وكيف أنكر ضوء الشمس بعد توسّمِ ؟ " ولا شك أن الاستفهام يحمل بداخلة شحنة انفعالية كأنها قطعة من نفس الشاعر التواقة إلى رد الجميل لأهله والاعتراف بالفضل لذويه .

قال البارودي في البيت الخامس :

وأنت الذي نوّهت باسمي ورشتني ..... بقولٍ سرى عنّي قناعَ التّوهُمِ

خطاب من البارودي إلى شكيب يؤكد فيه أن شكيب هو من بدأ بالفضل عندما كرر الاستشهاد بأبيات البارودي ، وأثنى عليها خيرا ويتبع هذا المعنى بقوله :

لك السبق دوني في الفضيلة فاشتمل ..... بحُلّتها فالفضل للمتقدّمِ

وقوله " لك السبق " قصر طريقه التقديم. الغرض منه التأكيد على أسبقية شكيب بالفضل ، وقوله " فاشتمل بحُلتها " أمر خرج من معناه الحقيقي إلى معنى مجازي وهو " الدعاء " أي فلتشملك حُلة الفضل ، ولا يخفى على أحد ما في الأسلوب من صورة رائعة جعلت من الفضيلة ثوبا سابغا يرتديه الإنسان فيتزين ويتجمّل به .

وفي البيت السابع يختم البارودي رسالته إلى شكيب بقوله " يابن الكرام " فمدح أصله ونسبه وآثر استخدام النداء بحرف النداء " يا " إشارة منه لعلو منزلته ورتبته .

والرسالة على قصرها وقلة عدد أبياتها إلا أنها كانت كافية وافية شافية . وقد كفانا الشاعر تعليل قلة عدد الأبيات عندما أتبعها بقوله : " ولولا أنّي في مكان حريد وقد حان قيامُ البريد ، لأطلتُ عنان الثناء ، وملأتُ صدر الإناء . ولسوف أفي بذمة الوعد ، إن أضاء نجم السّعد فاقبل مني على عُدواء الدار سلاما على جَناح البدار " [1]

[1] – ديوان البارودي ص ٥٥٤

وبعد فالرسالة قد استوفت أركانها من حيث تحديد الراسل " البارودي " والمرسل إليه " شكيب " والموضوع وهو " الشكر والثناء " والخاتمة وهي " الاعتراف بأفضلية السبق لشكيب أرسلان في الإشادة بشعر البارودي والاستشهاد به مرارا وتكرارا " مع التمسك بأهم خصائص الرسالة الشعرية وأقصد " الإيجاز والتركيز " سواء في عرض المعاني والأفكار أو استخدام الألفاظ والاقتصاد الشديد جدا في تلوين الرسالة بالصور والأخيلة .

د – الرسالة من حيث الوزن والموسيقا :

وقّع البارودي أنغام رسالته إلى شكيب أرسلان على أنغام بحر " الطويل " (فعولن – مفاعيلن – فعولن – مفاعيلن) في كل شطر. إيقاعات نغمية تطول عبر أثير الأصوات اللغوية تشدو بألحان متناوبة مابين " فعولن " تليها " مفاعيلن " وللطويل نغمات تطول ، ويطول معها الحديث كاشفا عن حبٍ وتقديرٍ من المرسل للمرسل إليه ، والشكر والاعتذار ، وبيان الفضل ، ومدح طيب الأصل ، ونباهة الفرع ، وقد استطاع الشاعر أن يستعين بتفعيلات بحر الطويل عوضا عن الاختصار في عدد أبيات الرسالة فوازن بذلك بين التقليل في عدد الأبيات ، والتطويل في عرض المعنى داخل البيت الواحد .

وتفعيلة بحر الطويل تبنى على إطلاق الحركات وتقييد السواكن لها ولكن أنّى للسكون أن يحقق مبتغاه ؟ فتنطلق الحركات متغلبة على السواكن معلنة بذلك عن شعور فياض متدفق من الحب والتقدير والإعجاب من البارودي لأميرالبيان ، وفي السكون فرصة لراحة الأنفاس والتفكير في إتباع المعنى بما يناسبه .

توّج البارودي رسالته بروي " الميم " المكسور. والميم حرف شفوي ينحبس النفس عند النطق به بعد امتلاء الفم بالهواء ، ومع الكسر انفراج النّفس وراحة للنَفس.

***رد شكيب على رسالة البارودي الأولى[١] :**

أرسل الأمير شكيب إلى البارودي رسالة شعرية رداعلى رسالة البارودي السابقة بدأها بقوله :

لك الله من عانٍ بشكرٍ مُنمنمِ ..... لتقدير حق من عُلاك محتّمِ

أ– النشر الأدبي للأبيات :

فَرِح شكيب أيّما فرح عندما تحقق له ما كان يصبو إليه. فقد أشاد بشعر البارودي في المجلات والصحف ، واستشهد بأبياته باعتبارها آية في البيان . فإذا برب السيف والقلم يضيف له مجدا وشهرة عندما أرسل له رسالة شعرية يشكره فيها ويُحقق له بها الأماني ، وبات ما يحلُم به شكيب

[١] – الأمير شكيب أرسلان – ديوان – ص ١٤ وما بعدها

حقيقة وواقعا ، فسارع بالرد تأكيدا وتوطيدا لأواصر المحبة . فدبّج له رسالة قوية يفوح شذاها بالحب وعظيم التقدير، بدأها بالدعاء الخالص من قلب محب مخلص قائلا :

لك الله أيّها الشاعر العظيم. ولك عندي شكرمستحق موشّى بحُلل البهاء فأنت الشّهم الأبيّ الكريم الذي يرى في حديثي عن شعره فضلا يستوجب الشكر . وما ذاك إلا من سجايا الكرام الذين ينكرون ذاتهم أمام الآخرين فكان حقا على الآخرين أن يذكروهم بكل فضل وكرم .

كيف تعجب من استشهادي بنظمك ؟ أنت صاحب اليد الطولى في نظم أشعاري ومن تفتّحت على يديه قرائح شعري فأنا الطائر المنشد في دوح آثرته بغيثك وفيض عطائك .

ولا أستطيع إنكار فضلك عليّ ، فلا ينكر الفضل إلا لئام الناس . يا صاحب القدر العظيم هوّن على نفسك ما أنت فيه ، فلو أنصفك الدهر لجعلك تتقدم غيرك . فأنت أحق بذلك وأهله. يكفيك أنك جامع للعلا والمكرمات ، فقد تبوّأتَ قلاع المجد وجمعتَ بين قوة السيف ، وروعة البيان وقلما يجمع أحد بينهما . مكانك بين نجوم السماء ترقى بشعرك حيث مصاف الفحول من الشعراء أمثال أبي نواس ، ومسلم بن الوليد وغيرهما ، فقد عاد للشعر العربي روحه على يديك ، وبعثت فيه الأمل من جديد . أشهد لك بذلك فمكانك حيث يضعك شعرك . فبين يديك تخضع الآوابد وينتظر الرواة قصائدك بكل شوق ولهفة .

لقد سعدت بك الهند دارا ومقاما ، فلك تحية تحملها رياحها بين شوق ورجاء وإقدام وإحجام تهيبا من لقائك فلتعفُ ولتصفح أيها الشاعر العظيم .

لاتحزن من خيانة الدّهر وتقلب حوادثه فهذا دأبه يُفرق بين المرء ووطنه ، وبين المرء ومن يحب . والأيام دول ، ولولا الإحساس بمرارة البؤس لما طابت لنا لذة النعيم . كن على أمل بتغير الحال وأن يُذلل لك الدهر قياده ، وينجلي الصبح بعد العتمة ، وتقبل منّي هذه الرسالة وقد جوّدتها في شكرك وهو شكر واجب ومستحق لشاعر عظيم مثلك .

ب- القصيدة من حيث الأفكار والمعاني :

بالموازنة بين رسالة البارودي ورسالة شكيب يتضح أن شكيب كان أوفرحظا في عرض المعاني والأفكار، وإن ألزم نفسه بالدوران حول المعاني الرئيسة التي تناولها البارودي ، وأطلق لنفسه العنان في شأن المعاني التي تفرعت عنها ، فجاءت ساحته أكثر رحابة ، وكانت نفسه تجود بالمعاني تنثال عليه انثيالا ، وكأني بشكيب يجتهد ويُجهد نفسه في تتبع المعاني واستقصائها حتى يكون على قدر من يراسله أو قريبا منه .

فقد جاءته الفرصة بعد طول غياب وأنّى له أن يُضيّعها ، ولابد له أن يُحسن استغلالها بكثرة الحديث والإطالة فيه . في حين اقتصر حديث البارودي على الشكر والثناء ، وتضمين الاعتذار

عن عدم الإسراع بالكلام والتعقيب ، فخالف شكيب بذلك ما ينبغي أن تكون عليه الرسالة الشعرية من الايجازوعدم التطويل ، وأولى عناية خاصة بالقصيدة وخصائصها الشعرية فاستحقت رسائله أن تكون ضمن ما يُطلق عليه " الشعر الرسائلي " الذي يكون اهتمام الشاعر فيه منصبا على الشعر أكثر من الرسالة ، بينما تجد في التزام البارودي بالايجاز والتركيز في عرض المعاني ما يجعل رسالته أقرب إلى " الرسائل الشعرية " منها إلى "الشعر الرسائلي " حيث كان اهتمام البارودي في المقام الأول موجها إلى "الشكر والاعتذار " بصرف النظر عن الاهتمام بالخصائص الشعرية التي من أهمها عند الشاعر الصور والأخيلة ، فجاءت رسالته خالية من التصوير الفني الذي يوليه الشاعر اهتمامه الأول .

ولم ينس أمير البيان أن يربت على كتف البارودي ، ويحاول أن يخفف عنه ألم البعد عن الوطن والأهل وألقى باللوم على الدهر ومكائده وتلك عادته في الأولين والآخرين ، ودعا له بتفريج الهم وفك الكرب عما قريب فيرجع إلى أهله وتكتحل عينه بتراب الوطن ، ويشرق الصبح من جديد ، وتتبدد غيوم السماء .

ج – القصيدة من حيث الصور والأخيلة :

الصوروالأخيلة في رسالة البارودي شحيحة ، والعكس في قصيدة شكيب فقد تفتحت فيها الصور كالورود في البساتين كلما انتهى من صورة أتبعها بأخرى دونما هوادة .

بدأ شكيب رسالته إلى البارودي بشحنة انفعالية هائلة عبّر من خلالها عن سعادته بمراسلة البارودي . فاستهل رسالته بالدعاء له بقوله :

لك الله من عانٍ بشكرٍ مُنمنمِ ..... لتقدير حقّ من عُلاك مُحتمِ

" لك الله ..." وكفى بالله وكيلا ، ثم أتبع الدعاء بالكشف عن الدافع إليه بقوله " لتقديرحق من عُلاك مُحتّم " فالدعاء حقّ واجب للبارودي أوجبه شكيب على نفسه تقديرا له ، ثم أتبع التفسير بالتفصيل بتعداد الصفات التي يتمتع بها المرسل إليه والتي من أجلها استحق أن يدعو له شكيب ، فهو الشهم الأبيّ النفس ، لا يُنكر فضلا لأحد يتميّز بطيب النفس ، وسماحة الخلق ، وعلو الأصل وشرفه فأفصح عن ذلك قائلا :

وشهمٍ أبيّ النفسِ أضحى يرى يداَ ..... تذكُّرَ فضلٍ أو جميلٍ لمُنعمِ

ثم يؤكد على استمرار الانفعال بالفرحة لمراسلة البارودي فتتوالى الاستفهامات دونما فاصل اعترافا بالفضل والجميل قائلا :

أيعجب من تنوه مثلي بمثله ؟..... لعمري الذي قد شق شعره فمي

إذا أمطر الغيثُ الرياضَ بوابلٍ .....فأيّ يدٍ للطائر المترنّمِ ؟

إذا ما تصبّت بالعميد صباحة ..... بوجهٍ فما فضل العميد المتيّمِ ؟
وهل يُنكر الإحسان إلا لئامةٌ .....ويُنكرُ حسنا غيرُ من طرفه عمي ؟
وهل في شهود الشمس أدنى مَزّيةٍ .....وقد جاء ضوءُ الشمسِ لم يتكتّمِ ؟[1]

كل استفهام يحمل معنى يقصده الشاعر مفاده : إثبات فضل البارودي على الشاعر وأن له عليه أيادي لا يستطيع إنكارها ، وجحد فضلها ، ومما لا يخفى على القارئ أن الاستفهام هنا خرج من معناه الحقيقي إلى معنى آخر مجازي وهو " التقرير " فالشاعر يعي تماما ما يقول ، بل ويؤمن به إيمانا يقينيا ، كل ما في الأمر أنه يريد أن يدفع المتلقي دفعا إلى التسليم بما يقوله ، ويقر به ، وأعتقد أنه نجح في ذلك بامتياز .

والاستفهامات بطبيعة الحال تثير نقاشا ، ومن ثمة احتجاجا ذلك أن " الافتراضات الضمنية التي تقوم عليها بعض الأسئلة هي التي تجعل من الاستفهام أسلوبا حجاجيا ؛ لأن كل إجابة مهما كان نوعها لابد أن تسلّم بتلك الافتراضيات ويكون قد أجبر المسؤل في اللحظة ذاتها على الإجابة وفق تلك الافتراضات" [2] ناهيك عما يفيده الاستفهام من شحذ الذهن ، وتنبيه الخاطر ، وجذب الانتباه.

فلا فضل للطائر المترنم في هطول الغيث على الرياض ، ولا فضل للعاشق المتيم إذا هبت عليه رياح الصّبا فهيّجت في نفسه كوامن الذكرى ، والإحسان لا ينكره إلا لئام الناس . كما أن من يُنكر الحسن ولايعترف به مُصاب بالعمى لا محالة ، وهكذا الحال مع فضل البارودي على شكيب لا ينكره إلا جاحد ، فإذا سلّم المتلقي بحدوث تلك الأشياء فالطبعي أن ينسحب الحكم على الحال التي بين البارودي وشكيب .

كما اعتمد الشاعر على بعض المحسنات البديعية بشكل يخدم مراده ومقصوده . يتضح ذلك في قوله :

جمعتَ العُلا تِلْدِها وطَريفها .....فجاءت كعقدٍ في ثناك منظّمِ [3]

فاستخدم الطباق الذي يوضّح المعنى بالتضاد بين " التليد والطّريف " فدل بذلك على أن البارودي جمع المعالي قديما وحديثا فجمع بين طيب الأصل ونباهة الفرع .

وأيضا في قوله " أُقدم وأُحجم " عندما قال :

وقد طالما حدّثت نفسي وعاقني ..... ترددها مابين: أقدِم وأحجمِ

وفي إشارة من الشاعر إلى ما اشتهر به البارودي بأنه " رب السيف والقلم " يقول شكيب :

---

[1] – شكيب أرسلان – ديوان – ص ١٤ * العميد : المتيّم عشقا – لسان العرب مادة ع. م. د

[2] – الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه – سامية الدريدي –ط– عالم الكتب الحديثة – الأردن ص ١٣٤

[3] – شكيب أرسلان – ديوان – ص ١٥ * التليد : الموروث من الأجداد – لسان العرب مادة : ت. ل. د * الطريف : النادرة وما يستملح من المواقف فيستحسن من الحكايات – لسان العرب : مادة ط. ر. ف

غدت خطّتي إما يراعٍ *ومخذم* ..... وإنك قطب في يراع ومخذمِ

وقوله أيضا :

ولم أر كفّا مثل كفّك أحسنت ..... إلى المجد إرعاف* المداد مع الدّمِ [١]

ويلاحظ هنا أنه قدّم في حديثه المجد الأدبي ممثلا في " اليراع " على المجد الحربي الذي رمز إليه بـ" المخذم " وذلك لأنه الموافق للمقام وأيضا لأنه الاهتمام الأول من الشاعرين والقاسم المشترك بينهما .

وبين قوله في البيت السابق : ولم أر كفا مثل كفك .....وقوله :

جمعتهما جمع القدير بكفه ..... إلى محتدٍ سامٍ إلى المجد ينتمي

بين البيتين" تضمين " إذ تعلّقت قافية البيت السابق بما بعده فلا يتم المعنى إلا بذكره حتى يُفهم المقصود. ويساوي شكيب بين البارودي وفحول الشعراء فيقرنه بهم في المكانة والمنزلة بل ويجعله مُقدما عليهم . في مبالغة صارخة تؤكد عمق تقديره للبارودي ولشعره الذي أحيا به موات الشعر ، وأقال عثراته بعد سنوات من الضعف والاضمحلال . فجمع له من الصفات ما يؤكد ذلك وإليك تفصيلها كالآتي :

أ- أعاد البارودي للشعر بهاءه وجماله وروعته بعد سنوات من الركود فقصائده أفصح من قصائد أبي نواس ومسلم بن الوليد حيث قال :

وأنت الذي ياابن الكرام أعدتها ..... لأفصح من عهد النواسي ومسلمِ

وأنشرتَ ميت الشعر بعد مصيره ..... لأعظم نثرا من رُفاتٍ وأعظُمِ

ب- نازع البارودي أبا تمام والبحتري في المكانة الأدبية والشعرية حيث قال :

ولو شعراء الدّهر تُعرض جملة ..... بمُنجدهم من كل حيّ ومُتهمِ

لأبصرتْ شخص البحتري مثلك بُحترا ..... وخلق أبي تمام غير مُتممِ

ج- سيطرالبارودي على أداة الشعر فجاءته طيعة ودانت له الأوابد مثل الآنسات على حد سواء فقال موضحا ذلك :

لك الآبدات الآنسات التي نأتْ ..... وأنْست عكاظ الشعر بل كل موسمِ

د- تمكن البارودي من نظم الشعرحتى حيّرألباب الرواة وأقلق مضاجعهم . حيث قال :

لكم أسهرتَ جفن الرواة وخالفتْ ..... حظوظك منها شُرّدٌ غير نوّمِ

يتكىء شكيب على معين التراث الشعري فينضح منه ما شاء من الصور والأساليب فيهمس إلى تلك الرياح التي تهُب على ربوع الهند فيُحمّلها أمانة السلام إلى البارودي ويوصيها بتبليغ رسالته . والصورة جد قديمة منثورة في التراث الشعري . وعن حرص الأمير شكيب على تقليد شعر

---

[١] – اليراع : مفرد يراعة : قصب يتخذ منه الأقلام – لسان العرب مادة ي. ر.ع * مخذم : السيف القاطع * لسان العرب مادة : خ. ذ. م * إرعاف : يقال أرعف القلم : أكثر حبره – لسان العرب مادة : ر. ع. ف

السابقين يقول أحد النقاد : " ومن الظواهر البادية في شعر شكيب متابعته للسابقين ، وتقليده للمتقدمين في اللفظ تارة ، وفي المعنى تارة ، وفيهما معا تارة أخرى ، وهويُقلدهم بصفة عامة في سوق العيس ، وحدو الظعائن ...." [١]

وإذا كان البارودي قد تهيّب مراسلة شكيب في بداية الأمر، فالحال كان أعظم عند شكيب فيرد على البارودي قوله بقوله :

وماذاك ضنّا بالوداد على امرئ ..... حباني به لكن تهيّبُ مقدمي

وهو المعنى ذاته الذي عبّرعنه شكيب بالتردد بين الإقدام والإحجام عندما قال :

وقد طالما حدّثت نفسي وعاقني ... ترددها ما بين : أقْدم وأحجمِ

ويبالغ شكيب في وصف عاطفة الرهبة التي أصابته عندما شرع في مراسلة البارودي فيقسم قائلا :

حلفتُ بما بين الحطيم وزمزم ..... وبالروضة الزهرا ألية مُقسمِ

لألفيتُ عندي دوس مشتجرالقنا ..... وخوضي في حوض من الطعن مفعمِ

أقلّ بقلبي في المواقف هيبة..... وأهون من ذاك المقام المعظّمِ

فيبالغ قائلا : بأن دخوله حربا ضروسا أهون عنده من مخاطبة البارودي أومراسلته . ويحضرني في ذلك أبيات كعب بن زهير التي صوّر فيها رهبته عند لقاء الرسول الكريم حيث قال أبياته الشهيرة :

لذاك أهيبُ عندي إذ أكلّمُه ..... وقيل إنك مسبورٌ ومسؤولُ

من ضيغمٍ من ضِراءِ الأُسْدِ مُخْدرُه ..... ببطنِ عثَّر غيلٌ دونه غيلُ[٢]

وختم شكيب قصيدته بالتسرية عن البارودي ، وتخفيف إحساسه بالغربة والبعد عن الأهل والوطن قائلا:

أمحمود سامي إن يكُ الدّهر خائنا ..... وطال عليك الزّجر طائرأشأمِ

فما زالت الأيام بؤسا وأنعُما ..... وحظُّ الشّقا بالمكثِ حظُّ التنعّمِ

ولولا الصدى ما طاب وردٌ ولا حلا ..... لك الشّهدُ إلا من مرارةِ علْقمِ

عسى تعب الأقدار والهمُّ ينْجلي ..... وينْصاح صبحُ السّعد في ذيلِ مظلمِ

وكما مدح البارودي رسالته مدح شكيب قصيدته واعتبرها حبيرة في شكر البارودي والثناء عليه وعلى شعره فقال :

وأهديك في ذاك المقامِ تهانئا ..... حبيرة مُسدِ في ثناك ومُلحمِ

هذا، وقد ألزم شكيب نفسه بإيقاعات بحر " الطويل " اتباعا لما سارعليه البارودي في رسالته ، فهو هنا متبع لا مبتدع.

---

[١] – أمير البيان شكيب أرسلان – أحمد الشرباصي – ص ٢٧٧

[٢] – كعب بن زهير – ديوان – ط– دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت – لبنان – ص٢١

**** ثانيا: الرسالة الثانية والرد عليها**

كتب محمود سامي باشا البارودي رسالة شعرية إلى شكيب أرسلان بدأها بقوله :

أدّي الرّسالة يا عُصفورة الوادي ..... **وباكري الحيّ من قولي بانشادِ**[١]

أ- النثر الأدبي للأبيات :

أراد البارودي تكريم شكيب بمراسلته تعبيرا له عن حفاوته بالرد على رسالته السابقة. ولكنه أرمد فتأخر في إرسال الرد ، وعندما امتثل للشفاء سارع بالرد معتذرا عن التأخر في الإجابة قائلا :

أدّى رسالتي ياعصفورة الوادي واذهبي حيث يسكن أمير البيان ، وانطلقي بين حدائق لبنان وبساتينها وبلّغي رسالتي إلى رجل أعرفه بصفاته ، وخلاله الحسنة فهو الشجاع القوي العظيم الهمة إن له منطقا بليغا يشبه منطق القدماء أهل البيان والفصاحة ، والتفوق في اللغة العربية .

يشبه في حلمه الأحنف بن قيس و يضاهي في شجاعته عمرا بن معد يكرب وعنترة بن شداد ، فيه من الصفات الحسنة والخلال الطيبة ما دفعني إلى مراسلته ، فهو معروف بأنه سليم السريرة يخلو قلبه من الحقد والغل ، أما أدبه فهو من النمط العالى يشهد له بذلك سكان البادية ، وأهل الحاضرة على حد سواء . ناهيك بكرمه وجوده الذي صار حديث الركبان . إن قلبي يبتهج أثناء الحديث عنه، وأشعر بالراحة عند مراسلته .

أسأله أن يقبل عذري في تأخير الرد على رسالته فما منعني من ذلك سوى مرض أصابني في عيني . إنها رسالة مختصرة فتقبلها مني على قصرها فالدّر وإن كان صغيرا تتزين به الفتيات الحسان ، ويتجمّلن به .

ب-الرسالة من حيث المعاني والأفكار :

يسير البارودي على خُطى السابقين ولا يحيد عنها . فيطلب من عصفورة الوادي أن تذهب برسالته حيث يسكن شكيب وأن تحرص على التستر والتخفي عن الأعين ، ولا أرى سببا لهذا التخفي أو علة من وراء التستر عن الأعين ؟! لا أرى لذلك علة سوى رغبة البارودي الأكيدة في أن يحذو حذو المتقدمين العاشقين عندما يؤثرون التخفي عن أعين الرقباء بُغية السّلامة ، ولكن ليس البارودي عاشقا ولا شكيب معشوقا . ويؤكد على ضرورة التستر بقوله :

ترقّبي سِنة الحرّاس وانطلقي ..... بين الخمائل في لبنان وارتادي

ويلاحظ هنا الدقة في الوصف فقد حدد الشاعر الزمان والمكان ، فالزمان " مبكرا " والمكان " لبنان " وتلك من بدهيات الترسل فلم يشأ أن يترك الأمر أمام الرسول " العصفورة " وإنما حدد له الزمان ووصف المكان وصفا دقيقا . حرصا منه على ضرورة ، وأمان وصول الرسالة إلى المرسل إليه .

---

[١] – البارودي – ديوان– ص ١٨١

كما سار على نسق الأقدمين في تحديد تلك الصفات التي يتصف بها شكيب فهو : كريم ، جواد، شجاع ، قوي البأس ، كريم الأصل ، نبيه الفرع حيث قال :

هو الهُمامُ الذي أحيا بمنطقهِ ..... لسان قومٍ أجادوا النّطق بالضادِ

تلقى به أحنف الأخلاق منتدبا ..... وفي الكريهةِ عمرا وابن شدادِ

وقوله السابق ألمح فيه تأثره ببيت أبي تمام الشهير في مدح الخليفة العباسي المعتصم عندما قال :

إقدام عمرو في سماحةِ حاتمٍ ... في حلمِ أحنف في ذكاءِ إياسِ[1]

ويختم البارودي رسالته إلى شكيب بالاعتذارعن التأخير في إرسال الرسالة كما يعتذر منه عن قصرها ويأمل أن تلقى عنده قبولا حسنا حيث قال :

وهاكها تُحفة منّي وإن صغُرتْ ..... فالدّرّ وهو صغيرٌ حليُ أجيادِ

ج- الرسالة من حيث الصور والأخيلة :

كعادته يؤثر البارودي قلة الصور في رسائله ويعتمد في توضيح المقصود على المعاني و الأساليب . فتراه يستخدم فعل الأمر في بداية الرسالة قائلا :

أدّي الرسالة ياعصفورة الوادي ..... وباكري الحيّ من قولي بإنشادِ

ترقّبي سِنة الحرّاس وانطلقي ..... بين الخمائل في لبنان وارتادي

وكما يلاحظ أن الأمرهنا لغير العاقل " عصفورة الوادي " فيأمرها بأن تؤدي الرسالة وأن يكون ذهابها مبكرا ، و تراقب الأعين ، و تنطلق خفية ، وترتاد جبل لبنان . مُصدّرا تلك الأوامر بأسلوب النداء المخصص للبعيد " يا " . إنها مخيلة الشاعر التي ترى الأشياء على غير طبيعتها فتبعث الحياة والروح في الجمادات من حولها ، وتخاطب من لايمكن مخاطبته ، وتوجه له الأمر والنداء . وكما اعترف شكيب أن البارودي أحيا الشعر بعد موته فإذا بالبارودي هنا يعتبر شكيب هومن أحيا العربية ببيانه وحلاوة منطقه .

ويستخدم الشاعر من المحسنات البديعية " الطباق " في قوله :

أفادني أدبا من منطقٍ شهدتْ ..... بفضله الناسُ من قارٍ ومن بادِ

فأفاد عموم الشهادة لشكيب بروعة البيان وحُسن المنطق من البدوي والحضري على حد سواء

كما اعتمد على الصورة البيانية عندما شبه رسالته بالدّرِ في قوله :

وهاكها تحفة مني وإن صغرت ..... فالدّر وهو صغيرٌ حلي أجيادِ

تكريما منه لرسالته ، وتقديرا للمرسل إليه .

---

[1] – أبو تمام – الديوان – شرح الخطيب التبريزي – تحقيق محمد عبده عزام –ط– دار المعارف – مصر

د- القصيدة من حيث الوزن والموسيقا :

وقّع الشاعر أنغام موسيقاه على تفعيلات بحر " البسيط " وللبسيط بسطة في الحركات والسكنات ، فيبسط الشاعرمن خلاله الحديث عن شكيب ويعدد صفاته وخلاله الحسنة ، وبيانه الجم ، ويعترف بأنه أحيا اللغة العربية كلها ببيانه وليس الشعر فحسب .

أما العروض والضرب فهما مقطوعان ، بحذف ساكن الوتد المجموع وإسكان ما قبله " فاعلن " تصبح بعد أن دخلها القطع " فاعل " فحديثه عن شكيب وتعداد صفاته حديث قاطع لاشك فيه ، أما الرويّ" فالدال المكسور" والدال حرف مخرجه من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا ، موصوف بالجهر، والشدة ، فالشاعر أراد أن يجهر بمدح شكيب والثناء عليه ، وعلى بيانه الناصع الذي كان سببا في إحياء العربية كلها .

**** رد شكيب على رسالة البارودي الثانية :**

أرسل شكيب إلى البارودي رسالة شعرية ردا على رسالة البارودي السابقة بدأها بقوله :

هل تعلمُ العيسُ إذا يحدو بها الحادي ..... أنّ السّرى فوق أضلاعٍ وأكبادِ

أ-النثر الأدبي للأبيات :

أسرع شكيب في الرد على رسالة البارودي مستعرضا من خلال رده ما أوتيه من روعة البيان ، وحُسن التعبير ، ومؤكدا أنه مازال على صلة وثيقة بالتراث الشعري القديم ، يُقلب بين صفحاته فيستقي منه أروع ما قيل ويعرضه بأسلوب بياني بليغ فيتحدث عن الأبل ، والظعن ، والحل والترحال في صحراء البادية . أغرق نفسه فيها ونهل من معينها فاستحالت على يديه صورة رائعة تجمع بين أصالة الماضي ، ورونق الحاضر فقال مصورا :

هل تعلمُ العيسُ إذ يحدو بها الحادي ..... أنّ السّرى فوق أضلاعٍ وأكبادِ

وهل ظعائنُ ذاك الرّكبِ عالمةٌ ..... أنّ النّوى بين أرواحٍ وأجسادِ [١]

لو تعلم الإبل النجيبة أنها برحيلها في جُنح الظلام إنما تسيرعلى كبدي وأضلعي ، وأن فراق الأحبة غيّر حالنا وبتنا نصارع آلام البعد والفراق ، ونسترجع الذكريات العذبة ، والماضي التليد ولكن دون فائدة . فقد حالت المسافات بيني وبينهم ولي فيهم سيد عظيم الأصل يسير شوقي إليه مع بُعد المسافة ، وهو جدير بهذا الشوق ، وذاك الحب لأنه ؛ سامٍ في صفاته رقيق الحشا في الرخاء ، قوي عند الشدائد يكفيه أنه من قوم تبوؤا من العلا منازل ، ومن الشرف مكانا عاليا لا ينازعهم فيه أحد . وما يعانيه من أذى الدهر لا يضره كما لا يضر النجوم ظهورها في وسط ظلام

---

[١] - الأميرشكيب أرسلان – ديوان ص ١٧

دامس ، وكما لا يقلل من حدة السيف كونه مصونا في غمده ، فالأيام دول ، والسعادة قادمة لا محالة، والكرب والشدة إلى زوال .عندها ستشرق شمس الأمل من جديد وتستقر الفرحة في القلوب. دعائي له أن تصفو له الأيام بعد كدر ، وأن يُذهب الدهر عنه حقد الأيام ، ولا غرابة في ذلك فمن شأنه التغيير والتبديل وعدم الثبات على حال .

ب–**القصيدة من حيث الأفكار والمعاني :**

تقوم قصيدة شكيب على عدة معان أساسية هي :

أ–شكوى الفراق ، ووصف ألم البعد بعد رحيل الأحبة وترى ذلك في تسعة أبيات من ١:٩

ب– مدح البارودي والثناء عليه وذلك في ستة أبيات من ١٠:١٥

ج– مواساة البارودي ومحاولة تخفيف آلام بُعده عن الوطن والأهل وذلك في خمسة أبيات من ١٦:٢٠

في كل فكرة من الأفكارالسابقة تجد معاني فرعية تندرج تحتها تخدم المعنى الرئيس ، فالمعنى الأول يحاول فيه جاهدا أن لا يدع للأقدمين فيه شيئا إلا وأتى به وسارعلى نهجهم فيه . فالإبل البيضاء النجيبة تعلن عن الرحيل ، ورحيلها يؤثر في النفوس فيدمي الكبد ويجرح الفؤاد ، وبرحيلهم رحلت معهم الراحة وفارقتني الآمال الباسمة فبت أناجيهم فهم شهود حضور في ذاكرتي لا يغيبون عن خاطري كأني أراهم رأي العين .

وهو بصدد المعنى الثاني يحشد مجموعة من الصفات يرسلها إلى البارودي كلها صفات شائعة على ألسنة الشعراء لا جديد فيها .

وعندما أراد أن يُسرّي عن صاحبه جعله نجما عاليا لا يضره شيء ، كما جعله سيفا قاطعا لا يقلل من قيمته كونه في غمده .

ويلاحظ من خلال عرض المعاني في القصيدة أنه أطال في المقدمة والحديث عن ألم البعد والفراق والشوق إلى رؤية الأحبة، واعتماده في هذه المعاني على معين التراث الشعري لأنه يعلم تماما أن البارودي ما تصدّرهذه المنزلة الأدبية إلا لأنه كان قادرا على بعث التراث الشعري من جديد فأراد أن ينافسه في ذلك . وأراه حقق ماكان يصبو إليه بمهارة واقتدار .

ج– القصيدة من حيث الصور والأخيلة :

نحن أمام لوحة كبيرة من لوحات الطبيعة الساحرة. في إحدى جوانبها ترى إبلا بيضاء قوية تسير في صحراء قاحلة وسط ليل بهيم ، إبل وصحراء وحاد وظلام دامس وأحبة يرحلون ويغادرون تاركين خلفهم ذكريات لا تُنسى ، وأناس يحزنون على بعدهم ورحيلهم .

استفهامات تتوالى تعكس حيرة قائلها وصدمته أمام الحدث ، وحزن عميق يسببه الرحيل والفراق. يستفهم الشاعر حتى من العيس التي لا تملك جوابا ولا ينتظر منها ردا . إنه يُنكر واقعا محققا

ولكن نفسه لا تقبله ولا تريد أن تصدقه ألا وهو رحيل الأحبة . وكما أن تلك الاستفهامات تؤثر في حال المتكلم فهي أيضا تبين ما يحدث تلقائيا للمخاطب من شحذ الذهن وإيقاظ الخاطر. ولا مجال للشك ، فالحديث مؤكد بإن وإسمية الجملة . وإصابة القلب بالألم لفراقهم حدث بالفعل فوررحيلهم بدليل استخدامه حرف " الفاء " الذي يفيد الترتيب والتعقيب في قوله :

تحمّلوا ففؤادي منذ بيْنهمُ ..... في إثرهم نضوُ* تأويب* وإيساد*[١]

وبالرغم من رحيلهم فإن الشاعر يُصرّ على وصلهم . وذلك بمداومته على زيارة أطلالهم واسترجاع الذكريات الماضية عند زيارتهم حتى شبّه نفسه بالقائف الذي يستتبع الأثر ليصل إلى مبتغاه حيث قال :

دون الخضارم* إن ضلّ الحبيب سرى ..... فإن وجدي نعم القائف* الهادي[٢]

ويتوجه إلى المرسل إليه بالخطاب المباشر مادحا كرم أصله مستفيدا بما تعلمه في علم الأسانيد أثناء دراسة الحديث النبوي الشريف ، بأن البارودي صحيح النسب ليس فيه ضعف في تاريخ وتسلسل نسبه ، وهو من المعاني والصور المميزة لأمير البيان فيقول :

سامي الأرومةِ* في أعراقه نسبٌ ..... في المجد لا يشتكي من ضعفِ إسنادِ[٣]

ويستعير صورة النجوم في السماء ، والسيف في غمده ويلحقهما بالممدوح للتأكيد على أن ما يصيبه من أذى الدهر ونكباته لا يقلل من قدره ، ولا يؤثر في منزلته ، ويُؤمّله في القادم وأن انتظار الأمل يشبه انتظار الصادي الذي يتلهف شربة ماء فإذا ما نالها وقعت في نفسه موقعا طيبا، وتركت في روحه أثرا حسنا .

ثالثا : الرسالة الثالثة والرد عليها :

أرسل البارودي إلى شكيب رسالة يُعبّر فيها عن خالص تقديره له ومحبته إياه قائلا :

ردّي التحية يا مهاة الأجرع* ..... وصِلي بحبلكِ حبل من لم يقطعِ [٤]

---

[١] – * نضو : مُجهد ومُتعب – لسان العرب مادة ن. ض. و * تأويب : السير أثناء النهار – لسان العرب مادة أ.و.ب * إيساد : السير أثناء الليل – لسان العرب مادة س. ي. د

[٢] – الخضارم : السيد الكريم * القائف : من لديه معرفة بنسبة الإنسان من خلال أعضائه وهو أيضا من يتتبع اثر السير

[٣] – الأرومة : كريم الأصل

[٤] – البارودي ديوان ص ٣٣١ – * الأجرع : الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل والمقصود مهاة الصحراء – لسان العرب مادة ج.ر.ع

بدأها بحديث الغزل الذي استغرق اثنين وعشرين بيتا ثم شرع في مدح شكيب في خمسة وعشرين بيتا وهي أطول رسالة بعث بها البارودي إلى شكيب أرسلان كما أن الرد عليها من شكيب هو الأكثر أبياتا بالنسبة إلى الردود الثلاثة الأخرى .

أ – النثر الأدبي للأبيات :

تقرأ رسالة البارودي إلى شكيب فيُخيل إليك منذ الوهلة الأولى أنك تقرأ قصيدة بمقدمة غزلية لشاعر جاهلي حصيف . فقد استعان البارودي في مقدمة رسالته بكل ماهو قديم في وصف الصحراء ورمالها وحيواناتها لا يحيد عن طريقة القدامى في ذلك قيد أنملة ، فيخاطبُ مهاة الصحراء ويُلقي عليها التحية ، ويطلب منها أن ترد التّحية بمثلها، ويشكو ما ألمّ به من تباريح الهوى حتى أذهب عقله. وحاله حال كل عاشق متيّم سهر دائم وليل متصل لا أمل معه في طلوع الصبح ، ومع ذلك تراه في انتظار الأمل الباسم ولقاء الأحبة .

يسمع هديل الحمام فلا يزيده ذلك إلا همًا وحزنًا ، فهديله بكاء ، وصوته نواح هيّج كوامن الذكرى ، وأقلق ساكنا ، وأتعب قلبا . في محاولة منه أن يتخطى ذلك بالحديث عن شكيب وتشبيهه بفحول الشعراء أمثال جرير والحطيئة ، وأن كلماته تطرب لها الآذان وتنتشى معها النفوس ، وتميل إليها القلوب ، وأن تلك الأبيات اعتراف بفضله وشاهد على بقاء الود بينهما موصولا . ويختم رسالته كعادته بالدعاء لشكيب أن يُنعم الله عليه برغد العيش والسعادة والعافية .

ب–**الرسالة من حيث الأفكار والمعاني :**

تحتوي قصيدة البارودي على عدة معان أُجملها في الآتي :

أ–وصف تباريح الهوى وما أصابه من طول الليل والسهد والأمل في طلوع الصبح ، تجد ذلك في ثمانية عشر بيتا قال فيها :

أرعى الكواكب في السّماء كأنّ لي ..... عند النجومِ رهينة لم تُدفعِ

وترى الثريا في السّماء كأنّها ..... حلقات قُرطٍ بالجُمانِ مُرصّعِ

ب – وصف الأيكة وهديل الحمام الذي هيّج كوامن الذكرى بداخله قال فيها :

وترنّحت فوق الأراكِ حمامةٌ ..... تصف الهوى بلسان صبٍّ مُولعِ

تدعو الهديل وما رأته وتلك من ..... شِيم الحمائم بدعةٌ لم تُسمعِ

ج– مدح شكيب بعراقة الأصل وطيب الفرع وحُسن البيان ، والفحولة الشعرية في خمسة وعشرين بيتا بدأها بقوله :

أملتْ عليّ قصيدة فجعلتها ..... لشكيب تحفة صادق لم يدّعِ

هي من أهازيج الحمام وإنّما ..... ضمنتُها مدح الهُمام الأروعِ

ويلاحظ مما سبق أن المقدمة الغزلية وما تبعها من الحديث عن هديل الحمام الذي أثار الذكريات يمثل نصف عدد أبيات القصيدة تقريبا ، والنصف الآخر في مدح شكيب والثناء عليه وعلى بيانه العذب . والحقيقة التي تستتر خلف الأبيات وبين السطور ولم يعلن عنها الشاعرالمرسل أن ثمة علاقة وثيقة بين حديث العشق ووصف تباريح الهوى، وبين مراسلته لشكيب والحديث عنه والثناء عليه وعلى شعره ، فالمحبوبة التي يتحدث عنها البارودي والتي أضناه بُعدها عنه إنما هي في الحقيقة " بلده وموطنه " الذي يمثل له فردوسا مفقودا يبحث عنه ويؤرقه بُعده عنه فبات يرعى النجوم أملا في ظهور ضوء النهار وعودة الحياة إليه من جديد . وتعد مراسلته لشكيب إعلانا صريحا منه بالتمسك بحياة الشرق رغم البعد وألم الفراق . فهي وشائج حرص الشاعرعلى التمسك بها وعدم التفريط فيها ؛ لأنها حياته التي يستمد منها القوة في مواجهة المخاطر ، والأمل الذي ترنوعينه إلى تحقيقه. إنه أمل العودة إلى الوطن ، هكذا ينبغي أن تُفهم أبياته ، ومعانيه التي يطرحها ، ويعمد إليها من وراء حجاب .

ج-الرسالة من حيث الصوروالأخيلة :

اعتمد الشاعر بشكل كبيرعلى الصورة التشبيهية في توضيح المعنى وتلوين الصورة فتراه يحشد تسعة تشبيهات متوالية من البيت الثامن وحتى البيت السابع عشر بشكل يدعو إلى العجب والدهشة ، وتجد نفسك تبحث عن تفسير ذلك ومقصده منه . وتفصيله كالآتي :

- النجوم اللامعة تشبه فقاقيع الماء .فقال :

زُهر تألقُ في السّماء كأنّها ..... حببٌ تردّد في غدير مُترعِ

- هذه النجوم تشبه حمامات بيض تقف على صفحة الماء . فقال :

وكأنها حول المجرّ حمائمٌ ..... بيضٌ عكفن على جوانب مشرعِ

- الثريا تشبه حلقات قرط في آذان الحسناوات . فقال :

وترى الثريا في السّماء كأنّها ..... حلقاتُ قرطٍ بالجمان مُرصّع

- الثريا تشبه بيض النعام في جوف الليل المظلم في أرض جرداء .فقال :

بيضاء ناصعة كبيض نعامة ..... في جوف أدحيّ بأرض بلقعِ*[1]

- النجوم تشبه مصابيح مشعة في سقف قصرعظيم . فقال :

وكأنّها أكرٌ توقّد نورها ..... بالكهرباءة في سماوة مصنعِ

- الليل يشبه الراهب في ثوبه الأسود القشيب .فقال :

---

[1] - * بلقع : الأرض التي لا شجر بها تكون في الرمل وفي القيعان

والليل مرهوبُ الحميّة قائمٌ ..... في مسحه كالراهب المتلفّعِ

– الكواكب في سماء الليل الدامس كمن توشح بالدروع . فقال :

متوشّحٌ بالنيّرات كباسلٍ ..... من نسل حامٍ باللجين مدرّعِ

– ضوء الفجر عندما لاح أشبه بغرة فرس لونه خليط من السواد والحمرة . فقال :

ما زلتُ أرقبُ فجرهُ حتّى انجلى ..... عن مثل شادخة* الكميت الأتلعِ*[١]

وبالمثل عند مخاطبته شكيب ومدحه إياه يستعين على ذلك بعدد من الصور البيانية بيانها كالآتي :

– فالمخاطب يشبه مصباحا يُهتدى به في ظلمات الليل البهيم .فقال :

هو ذلك الشّهم الذي بلغتْ به ..... مشكاته حدّ السّماك الأرفعِ

– يسيطرعلى شوارد الأفكاركمن يُقيّد البعيرويُحكم توجيهها .فقال :

نبراس داجيةٍ وعُقلة شاردٍ ..... وخطيب أندية وفارس مجمعِ

– يشبه في بيانه جرير والحطيئة . فقال :

صدق البيان أعضّ "جرول" باسمه ..... وثنى جريرا بالجرير الأطوعِ

– بيانه واضح كالشمس يوشع لاشك فيها .فقال :

لم يتخذ بدر المقنّع آية ..... بل جاء خاطره بآية يوشعِ

– منطقه وأسلوبه يشبه منطق وأسلوب الأصمعي اللغوي الكبير .فقال :

أحيا رميم الشعر بعد هموده ..... وأعاد للأيام عصر الأصمعي

– كلماته الرقيقة وأسلوبه العذب يختلطان بنفسه اختلاط الندى بالزهر .فقال :

كالزهر خامره الندى فتأرجحت ..... أنفاسه بالعنبر المتضوع*[٢]

– أدبه يشبه حديقة مثمرة بالعشب والنباتات .فقال :

هي نُجعةُ* الأدب التي من أمّها ..... ألقى مراسيه بوادٍ ممرّعِ*[٣]

تفوق البارودي في هذه الأبيات تفوقا بيّنا خاصة عندما وصف رسائل شكيب وأثرها في نفسه بأنها : " **ملكت هوى نفسه، وأحيت خاطره ، وروت صدى قلبه ، ولذت مسامعه** " بما يدل على أن أثر شعر شكيب في نفسه قد بلغ منتهاه ، وأنه أعجب به أيّما إعجاب حتى ملك عليه جميع

---

[١] – * شادخة : غرة في وجه الفرس من الناصية إلى الأنف – لسان العرب مادة ش. د. خ * الأتلع : المرأة الحسناء إذا رفعت رأسها – لسان العرب مادة ت.ل.ع

[٢] – * المتضوع : المنتشر عبيره – لسان العرب مادة ض. و.ع

[٣] – * نُجعة :طلب الكلأ ومساقط الغيث – لسان العرب مادة ن. ج. ع * ممرع : مكان ممرع : خصيب – لسان العرب مادة م. ر. ع

حواسه " نفسه ، خاطره ، قلبه ، مسامعه " ويلاحظ الدقة في التعبير من خلال اختياره التملك للنفس ، والحياة للخاطر ، والريّ للصدى ، واللذة للسماع . فالنفس تملكت ، والخاطرأحيي ، وصدى القلب ارتوى ، والسمع تلذذ ... ماذا ينتظر بعد ذلك ؟

ويُتبع ذلك بأن وصف بيان شكيب بأنه يشبه بيان " إياد " أحد خطباء العرب المفوّهين ، وشعره يشبه شعرعنترة الفوارس . وأرى أن تقيد الصفة بأشخاص بعينهم يقلل من المبالغة فيها ، ودليل ذلك ما نحن بصدد الحديث عنه ، فبعد أن فاض البارودي في وصف قصائد شكيب وأثرها في نفسه وخاطره وقلبه وسمعه عاد وقيد وصفه بأن ألحق شكيب بإياد تارة وعنترة تارة أخرى مع أن صفاته السابقة لشكيب ولشعره وبيانه كانت أكثر اتساعا في معانيها وما ترمي إليه .

د-القصيدة من حيث الوزن والموسيقا :

وقّع الشاعر أنغام رسالته على إيقاعات بحر " الكامل " التام (متفاعلن – متفاعلن – متفاعلن) تفعيلة تتكرر ولا تتغير مع العروض المضمرة والضرب المضمر بتسكين الثاني المتحرك[١]

بحر تتغلب فيه الحركات على السواكن ، وكثرة الحركات في التفعيلة لها مدلولات عدة : فهي تعني تحرك نفس الشاعر نحو وطنه وشوقه إلى رؤية الأهل والأحباب ، كما أنها تعني تحرك الممدوح ببيانه نحو العلا حيث نجوم السماء ، ومع محاولة السواكن عرقلة الحركات إلا أنها لم تفلح في ذلك فتنطلق الحركات من جديد معبرة عن شوق البارودي إلى موطنه. واختارت نفسه روي العين المكسور ، والكسر انكسار أمام الواقع المرير الذي يقيد حرية الشاعر، ويفرض عليه حياة الغربة والعزلة والبعد عن الأهل والأحباب .

والعين من أبعد الحروف مخرجا ، وبها ثقل في اللسان يعكس ثقلا في النفس من وطأة الأحداث ونكبات الدهر المتلاحقة على الشاعر .

***** رد شكيب على رسالة البارودي السابقة :**

ما إن وصلت رسالة البارودي إلى شكيب حتّى أسرع في الرد عليها . ملتزما خُطى البارودي من حيث المعاني المتناولة والوزن والموسيقا وإليك تفصيل الرد :

أ- النثر الأدبي للأبيات : بدأ البارودي رسالته إلى شكيب بالحديث عن تباريح الهوى ، وآلام البعد أما شكيب فلم يشكُ هجرا أو فراقا ، وبات الأمر معه مختلفا تماما .فإذا به يتحدث عن حلاوة الوصل وروعة اللقاء ، ولا يؤرقه سوى غيرته الزائدة على محبوبته ، ويستطرد فيصف عاطفة

الحب وأثرها في نفسه ، وبينما البارودي يشكو في رسالته طول الليل حتى بات راعيا للنجوم ولا أمل لديه في إشراقة ضوء النهارإذا بشكيب يتمنى أن يطول ليله داعيا ألا يباغته ضوء النهار ، فيدعو بعكس ما كان يدعو به يوشع ويأمل أن يطول ليله . و ينتقل إلى الفخر بنفسه وقومه فيجعل من وصفه لنفسه بعلو الهمة والدفاع عن عز قومه ومجدهم ، سبيلا إلى ترك حياة الحب والوصل إلى حياة الجد والعمل بغية أن يضيف إلى قومه مجدا وسؤددا .

ثم شرع في مدح البارودي شاكرا له على مديحه إياه والإعجاب بأسلوبه البياني الرائع ، و شبهه بفحول الشعراء وأعلام القول أمثال الأصمعي وابن المقفع وغيرهما من أرباب الفصاحة والبيان ، ووصفه بأنه في مأمن من ضعف القول وفي حصن من الركاكة فقد أبدع إبداعا لا مثيل له ، وإنه لفخر له أن يطارحه البارودي قصائد من الشعر ويهدي إليه رسائله التى يقف شكيب أمامها حاسر الذهن لما فيها من موهبة فذة ، ناهيك عما تمتع به البارودي من كرم أصله وعلو همته. ثم ختم رسالته بالدعاء له بالسلامة وأن ينال رغد العيش ويستميحه عذرا عن تقصيره في القول مهما قال ومهما أبدع .

ب–القصيدة من حيث الأفكار والمعاني :

اشتملت رسالة شكيب على عدة معان هي :

أ–وصف عواطفه وتعلقه بمحبوبته وإيثارها على غيرها من الحسان في عشرين بيتا بدأها بقوله :

أتُرى يحلُّ هواكِ بين الأضْلعِ ..... ويحل لي بسواك ذرفُ الأدمُعِ

وأبِيتُ أُشرك فيكِ في دين الهوى ..... وأكون للتوحيد أوّل مُدّعِ

وتظل تشرد بي لغيركِ صبوةٌ .... هي من سجونك في المحلّ الأمْنعِ

ب–فرحه بلقاء محبوبته وسعادته بوصلها في ستة عشر بيتا . بدأها بقوله :

هي زورةٌ تحت الظلام وردّتُها ..... فردا بلا عضدِ ، بلى قلبي معي

ج– الفخر بنفسه وعراقة نسبه في ستة أبيات بدأها بقوله :

وطلعتُ أعثر بالسيوف ولو درى ..... أهل السيوف مقامتي لم أفزع

د– مدح البارودي وتقريظ شعره وبيان تفوقه فيه في تسعة عشر بيتا . بدأها بقوله :

وبلغتُ من سامي الفخار وجاءني التّـ قريظُ من " محمود سامي " الأرفعِ

هـ– الدعاء للبارودي برغد العيش ، والسلامة من كل مكروه وسوء في بيت واحد قال فيه:

فاسلم رعاك الله سابغ نعمةٍ ..... وأعاد عيشك للزمان الأمْرعِ

و– الاعتذار عن التقصير في الثناء ، وأنه مهما قال لن يوفي البارودي حقة ، ولا يعطيه قدره في بيت واحد فقط قال فيه :

واعذر إذا قصّرتُ عن حقٍ فلو ..... أمليتُ أسود مقلتي لم أقنعِ

إلتزم الأمير بالسيرعلى نهج البارودي في الرد على رسالتة فبدأ بحديث الغزل مراعيا فيه حالته فلم يشكُ هجرا ولا فراقا كما شكى البارودي بل تحدث عن وصل جميل ونشوة حالمة بلقاء محبوبته. وفي هذا دلالة على صدق العاطفة عندهما ، فكلاهما يعبرعن حالة خاصة به تختلف بطبيعة الحال عن الآخر ، فالبارودي يأمل في الوصل ورؤية الأحبة ويشكو من تباريح الجوى وآلام البعد، وهذا موافق لواقعه الذي يحياه لأنه ؛ يعيش على أمل العودة إلى أرض الوطن ولقاء الأحبة. أما شكيب فيعيش هانىء البال قريرالعين ينعم بوصل أحبته ، وقد دفعه ذلك إلى الفخر بنفسه وعز قومه وتعبيره عن ذاته فارسا مقداما . تاركا حياة الرفاهية ورغد العيش إلى حياة الجهاد والنضال من أجل الحفاظ على وحدة الأمة العربية .

وفخرالأمير بنفسه والاعتداد بذاته في هذا الوقت وبعد أن أرسل رسالتين للبارودي يمكن تفسيره بأن الأمير لم يعد يرى نفسه أقل من البارودي أدبيا . بعدما كان في السابق يسعى سعيا حثيثا للحديث معه ومطارحته الشعر حتى تحقق له مايريد بتبادل الرسائل الشعرية بينهما ، فسوغ له ذلك أن يعبر عن ذاته التي كان يغمطها حقها أمام قامة البارودي . كل ذلك مغلف بأسلوب قوي ، وعبارات جزلة ، وقوية صلبة كالصخر تعكس قوة في الشخصية وثقة في النفس ، بما دفع د/ أحمد الشرباصي أن يقول عن أسلوب الأمير شكيب : إنه يكثر من جلجلة العبارات ويُقصد بذلك تضمينه ألفاظا فيها شدة صوتية عند نطقها ، وأطول في مبناها ... وهذه الجلجلة موجودة في الشعر والنثر ولا شك أن الجلالة تكون في مواطن بعينها دون الآخر وله أيضا بعض التعابير الغريبة وأيضا التكرار الذي يأتي للتأكيد أو المبالغة والاستطراد أيضا . [١]

ج- القصيدة من حيث الصور والأخيلة :

لوّن أمير البيان صوره بألوان مختلفة ما بين صورتشبيهية وأخرى استعارية وغيرهما. مستعينا على ذلك بموهبته البارعة في تكوين الصوروصياغتها . يطالعك جمال التصوير في كل بيت من أبيات القصيدة تنبهربروعة اللغة وتندهش بالقدرة على تركيب الصور وتلوينها فيتحدث عن روعة الوصل قائلا :

أترى يحل هواك بين الأضلع ..... ويحل لي بسواك ذرف الأدمعِ

قلبٌ عليك تختّمت أبوابه ..... ما نحوه لسواك طرفة مطمعِ

[١] – راجع : أمير البيان شكيب أرسلان – ص ١٧١ وما بعدها بتصرف

ويُظهرقمة الإحساس بالحب عندما اختلفت الجوارح فيما بينها في أيهم أشد إحساسا بهذا الحب وتأثرا به حيث قال معبّرا :

أضحت تغاير في هواك جوارحي .... حتى ليغضب ناظري من مسمعي

وعندما تحقق له ما كان يصبو إليه في زورة تحت جُنح الظلام إذا به يُطالع هلالا نيّرا ليس له نظير :

هي زورةٌ تحت الظلام وردتُها ..... فردا بلا عضدٍ ، بلى قلبي معي

فنظرتُ من ذاك الهلال لنيّر..... وعلقت من ذاك الغزال بأتلعِ*[١]

عندها تناغمت معه الطبيعة بكل مفرداتها سماءً وأرضا وشاركته إحساسه فقال مصورا :

وترى المجرة في السّماء كأنها ..... درّ تناثر من سماء مُضرّعِ

ورأيتُ أسراب النجوم تتابعت ..... بفرارها مصْع *النعام الأمزع*[٢]

ما كان أحوجنا بذاك لآيةٍ ..... تأتي لنا في عكس آية يوشع !

فالنجوم متناثرة في السّماء كالدر تهرع هاربة كأنها النعام المسرع ذاهبة بالليل إيذانا بطلوع الصبح ، فالنجوم في ضوئها كأنها الدر المشع ، وفي سرعة ذهابها وحركتها تشبه النعام المسرع ، وهنا لمحة ودقة في الوصف من الشاعر ، فلماذا شبه سرعة ذهاب النجوم بحركة سير النعام دون غيره ؟ لأن النعام كما هو معروف أسرع طائر على وجه الأرض في حركته. هذه الحركة السريعة يقصدها الشاعر ويريدها لتعكس بدورها سرعة حركة النجوم . فحدث مالايريده الشاعرألا هو سرعة ذهاب النجوم وبالتالي سرعة سريان الليل الذي ترتب عليه طلوع الصبح . وهذا مالا يبغيه الشاعر ولا يريده ، فتمنى عكس ما تمناه يوشع فقد دعا يوشع أن تظل الشمس فيطول النهار حتى يتمكن من محاربة أعدائه والقضاء عليهم ، وهذا عكس ما تمناه الأمير . واستدعاء يوشع وقصته في الرسالتين (رسالة البارودي ورسالة شكيب) تم توظيفها توظيفا مختلفا بين البارودي وشكيب ، فقد استعان بها البارودي كي يشبّه بها صدق موهبة شكيب كصدق آية يوشع وأن موهبة شكيب خارقة تماما كمعجزة يوشع ببقاء النهاروتأخيرغروب الشمس . أما شكيب فقد استدعى القصة برمتها ووظفها كما هي باستثناء قلب الأمنية من تمنٍ لتأخر غياب الشمس عند يوشع إلى تمنٍ باستمرار الليل وتأخر طلوع الشمس عن شكيب .

---

[١] – * أتلع : طويل العنق أو القامة – لسان العرب مادة ت. ل.ع

[٢] – * مصع : ولى وذهب مسرعا – لسان العرب مادة م. ص. ع * الأمزع : المسرع

وعندما أراد شكيب الانتقال من حديث الهوى والعشق والوصل إلى الحديث عن الفخر بنفسه جعل من ترك حياة اللهو والدعة إلى حياة الكر والفر والنضال سبيلا إلى ذلك ومهد للانتقال بحُسن التخلص بقوله :

زحزحت عنها ساعدي وتركتها ..... دون الكرى من تحت عبءٍ مُضلعِ
وطلعتُ أعثر بالسيوف ولو درى ..... أهل السيوف مقامتي لم أفزعِ

ثم انتقل إلى مدح البارودي شاكرا له تقريظه لشعره بقوله :

وبلغتُ من سامي الفخار وجاءني التّ قريظُ من محمود سامي الأرفعِ
خنذيذ* هذا الدهر واحد أهله .... مقدام حلبته الأغر الأبتعِ*[١]
القائل الفصح التي عن مثلها .....يُثني " المقفع " في بنان مقفّع
لو جاءفي العصر القديم لما روى.... .....إلا قصائده لسان الأصمعي
قد قاد مملكة الكلام وحازها ..... أخذَ الأعزةِ للذليل الأضرع
إن يعصه قولٌ فلم يك لفتة ....حتى يذلل مستقيم الأخدع[٢]

وقد استطاع الأمير شكيب أن يوظف ما اشتهر به البارودي " رب السيف والقلم " في مدحه له فمدحه بأنه الفارس المقدام وفي الوقت ذاته وصفه بأنه من تلين الألفاظ بين يديه ، وتخضع المعاني أمامه وإن كانت عصيّة على غيره . وتظهر مقدرة الأمير شكيب في انتقاء الألفاظ التي تعبر عن المقصود بكل دقة من خلال اختياره لكلمة " خنذيذ " التي تجمع في معانيها بين الوصف بالشجاعة والفروسية وكذلك الشاعر المفلق والخطيب المفوه .

ويعمد شكيب إلى إظهار التواضع أمام البارودي– بعد أن أعطى لنفسه مساحة سابقة في الفخر بنفسه– الذي منّ عليه بمراسلته بقصائده الواحدة تلو الأخرى حتى أصيب بالخجل منه وهاب من شخصه الكريم :

أضحى يطارحني القريض وهل ترى ..... من أصبعٍ يوما يقاس بأذرعِ؟
أملى إليّ قصيدة فأذابني .....خجلا وهيبة خاشعٍ متصدّعِ

ختم شكيب رسالته بما ختم به البارودي رسالته من الدعاء بالنعمة ورغد العيش .

ونفس الالتزام تجده أيضا في موسيقا الرسالة وقافيتها فليس لشكيب فيها فضل فهو متبع لا مبتدع .

---

[١] – * خنذيذ : الشاعر المفلق والخطيب المفوة وأيضا القوي الشجاع * أبتع : طويل العنق – لسان العرب مادة ب. ت. ع

[٢] – شكيب أرسلان– ديوان – ص ٢٠

رابعا : الرسالة الرابعة والأخيرة بين البارودي وشكيب :

في هذه الرسالة الأمر مختلف تماما . ففي كل مرة يبدأ البارودي بإرسال رسالة شعرية لشكيب ثم يرد شكيب على رسالته بقصيدة يلتزم فيها إلى حد كبير بالمعاني ذاتها وكذا الوزن والموسيقا . أما هنا فقد بدأ شكيب بالمراسلة فما كان من البارودي إلا أن كتب إليه رسالة شعريه يرد فيها عليه . وقال شكيب في التقديم لهذه الرسالة : " وكنت سنة ١٩٠٨ شاتيا في طبرية عند ابن عمي الأمير أمين المصطفى أرسلان ، حيث كان قائمقام في تلك البلدة ، فأرسلت إلى محمود سامي باشا في مصر قصيدة ميمية من بحر الخفيف فُقدت من بين أوراقي ، وكان قد فقد إحدى كرائمه ، فكان موضوع القصيدة التعزية والتسلية ، وإني أتذكر منها بعض أبيات :

لا تخلْ كنتَ في الفجيعة فردا..... كلّ قلبٍ بجرح قلبك دامِ

إن أزالوك عن رآسة حُكم .... لم تزل صدر دولة الأفهامِ

ويقول : ومما أتذكره من هذه القصيدة وصف طبرية وغورها :

في ضفاف الأردُنّ يجري على الغو ر كساقٍ يدير كأس المدام

وتباشير للربيع أضاءت ..... في عرار من زهره وبشام

وسلامي على الخليل وشوقي ..... وعلى حافظٍ بديع النظام

الثريا التي قدمتُ عليها ..... بضئيل السّهى وشِبْه القَتَام [1]

يُفهم من كلام الأميرأن هذه الرسالة كتبها وأرسلها للبارودي عام ١٩٠٨ومن المعروف أن البارودي عاد من المنفى سنة ١٨٩٩ وتوفي عام ١٩٠٤ ومعنى ذلك أن الواقع يؤكد أن هذه الرسالة تمت كتابتها وإرسالها مابين ١٨٩٩و١٩٠٤أي قبل وفاة البارودي بطبيعة الحال ، وربما كان الخطأ في التاريخ من الأمير شكيب غير مقصود يبرره إعتلال صحة الأميرشكيب – وهو الغالب – بسبب كبرالسن ، أو خطأ عند طباعة الديوان وهو الأقل ترجيحا .

كل شيء في هذه الرسالة مختلف عن سابقتها فالغرض الرئيس منها التعزية والتسلية ، وقد فُقد معظم أبياتها ولكن من خلال رد البارودي عليها نستطيع معرفة ماقاله شكيب في رسالته. فالأمير شكيب يشاطر البارودي حزنه في فقد كريمته كما حرص على مواساته أيضا لفقد منصبه السياسي.

كما اتخذ الأمير من هذه الرسالة سبيلا إلى وصف الشام وأهله ، ومنه يرسل تحية لمصر وأهلها وخاصة أعلام الشعر فيها أمثال شوقي وحافظ .

---

[1] – الأمير شكيب أرسلان – ديوان – ص ٢٣،٢٤

أ- رسالة شكيب من حيث المعاني والأفكار :

الأبيات المذكورة من الرسالة تكشف عن بعض المعاني المتناولة فيها :

أ-التعزية لفقد الابنة

ب- التسلية لفقد المنصب السياسي

ج- وصف ربوع الشام وطبيعته الساحرة

د- مدح أعلام الشعر المصري

هـ- المدح الضمني للبارودي باعتباره ربا للقلم وأميرا للشعر في عصره

يلاحظ في تلك الأبيات السهولة والوضوح في معانيها عكس ما عُرف عن رسائل شكيب السابقة والتي حرص شكيب على الغموض في كثير من معانيها والتمسك بالطابع القديم فيها .

كما يتضح أيضا وضوح الألفاظ وبعدها عن الغرابة المنتشرة بشكل لافت في الرسائل السابقة.

وأرى أن السبب وراء هذا التغيير أن الأمير شكيب أصبح متمكنا في دنيا البيان قويا في حياة الشعر يقف على أرض صلبة قوية لايحتاج إلى ما كان يحتاج إليه سلفا من إثبات التفوق أمام البارودي أو غيره ، فلا داعي لمجاهدة النفس والطبع. وبالتالي ترك نفسه على سجيتها ولم يكلف موهبته عناء البحث عن المعاني الغريبة والألفاظ الوحشية لإثبات ذاته وموهبته الشعرية ، ويضاف إلى ذلك أيضا أن شكيب هوالبادىء بالمراسلة فكان مبتدعا لا متّبعا، وأيضا وصف الطبيعة الشامية وبهاؤها ألقى بظلاله على نفس الأمير فرقّت حواشيه ولانت ألفاظه ووضحت معانيه .

ب-رسالة شكيب من حيث الصور والأخيلة :

التعزية والتسرية والتسلية الغرض الرئيس من الرسالة لذا ؛ حرص شكيب على تسليط الضوء عليها يظهر ذلك في قوله :

لا تخلُ كنتَ في الفجيعة فردا..... كلّ قلبٍ بجرح قلبك دامِ

إن أزالوك عن رآسة حُكم ..... لم تزل صدر دولة الأفهامِ

ياحبذا أن تكون التسرية عن النفس بوجود المتضامن معها في حزنها . يربت على الكتف ، ويشارك بقلبه في الحزن . فقد جعل شكيب كل قلوب البشردامية لجُرحٍ أصاب قلب البارودي . والمعنى على ما فيه من المبالغة إلا أنّها مبالغة مستحسنة ؛ لما لها من أثر حسن في نفس الحزين. فعندما يشعرالإنسان أن غيره يحزن لحزنه ، ويبكي لبكائه يُسرّي ذلك عن نفسه ، ويربط على قلبه . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أراد شكيب أن يبعث في نفس البارودي أملا يعينه على التعايش مع نوائب الدهر. فإن أزالوه من منصبه السياسي فلم يستطيعوا أن ينزعوا منه مجده الأدبي ، ومكانته في دنيا الشعر .

أما عن جمال الطبيعة الشامية فحدّث ولا حرج . خاصة مع جو الربيع الباسم والأجواء الساحرة . وقد يسأل سائل ، هل الحديث عن جمال الطبيعة الشامية وسحرها ملائم أثناء الحديث عن التعزية بفقد الابنة أو التسرية لفقد منصب ؟ أقول : ربّما أراد الأمير شكيب من وراء ذلك محاولة التخفيف عن نفس البارودي من خلال تحويل فكره وعاطفته إلى حالة أخرى مغايرة لحالة الحزن .ولا شك أن في الحديث عن الطبيعة وسحرها متنفسا واسعا لراحة النفس وسكون الخاطر .

ج-رسالة شكيب من حيث الوزن والموسيقا :

اختار الأمير شكيب إيقاعات بحر الخفيف ليصب فيها تجربته (فاعلاتن – مستفع لن – فاعلاتن) حركات تغلب السواكن والحركة تعني تحرك عواطف الأمير تجاه البارودي ومشاركته حزنه على فقد كريمته ، وتخفيفا وتسرية له عن فقد منصبه ، كما أن الحركة تعني الانتقال وسط مشاهد الطبيعة الشامية الساحرة . أما السكون فهو وقوف النفس وصمودها أمام قضاء الله وقدره ،والثبات أمام حوادث الدهر ونكبات الأيام .

وروي الميم المكسور يكمل المشهد ويغلف الصورة والميم حرف شفوي ينحبس النفس عند النطق به كانحباس النفس عند نزول المصيبة ، والتسليم بقضاء الله وقدره والكسر المصاحب للميم يؤكد ذلك ويُدعّمه .

***رد البارودي على رسالة شكيب السابقة :**

أرسل البارودي رسالة إلى الأمير شكيب ردا على رسالته السابقة أبدع فيها وبدأها بقولة :

حيّ مغنى الهوى بوادي الشآم ..... وادعُ باسمي تُجِبك وُرْقُ الحمامِ

هُنّ يعرفنني بطول حنيني..... بين تلك السهولِ والآكامِ[1]

أ- النثر الأدبي للأبيات : يستهل البارودي رسالته بالحديث عن بلاد الشام معلنا تعلق قلبه بها ما يفتأ يذكرها إلا ولاحت ذكرياته معها أمام عينه ، ويطلب شهادة الورقاء فقد كانت شاهدة على صفاء وده وإخلاصه للشام وأهله، وينادي النسيم العليل : أيها النسيم بلّغ تحياتي لهم واقض عني حق الزيارة ، وليتني أستطيع أن أفوز بزيارتهم واللقاء بهم ، فبيني وبينهم بحر أمواجه عاتية عالية تتهادى فيه السفن كالجبال في هيئتها أو كالخيول الجامحة في فقد السيطرة عليها أوالإبل السريعة . وسط دهشة الربّان فهيهات أن يستطيعوا السيطرة على السفن وسط هذه الأمواج المتلاحقة المتلاطمة .

---

[1] – البارودي – ديوان – ص ٥٤٧

ويتساءل ، ماذا أصنع وقد حالت المسافات بيني وبين رؤيتهم ؟ فأنا بمصر وقلبي يسكن الشام، فعليّ أن أخدع نفسي بأمنيات زائفة على أمل اللقاء بهم . فماذا عساي أن أفعل ؟
متى أستطيع أن التقي بهذا الصديق العزيز ؟ فقد جمعت الأخوة والمودة بيني وبينه ، كما جمعني به حب الشعر، فتقابلت الأرواح قبل الأجساد فتشاكلت وتعارفت فأتلفت وانسجمت ، وهذا عندي آكد للصداقة ودوام المحبة . إنه نِعم الصديق الذكي متوقد الذهن ، يتصف بالفراسة ويتمتع بالرأي السديد ، يطربني شعره ، ويُحرّك مشاعري فأرجو أن يقبل رسالتي ، وهذا قليل من كثير في حقه فأشهد على صدق محبته ، وإن كان غيري يفخر بالأوسمة ونحوها فأنا فخور بصفاء الود بيننا وخالص دعائي له بدوام النعمة ورغد العيش .

ب–الرسالة من حيث المعاني والأفكار :

اشتملت الرسالة على مجموعة من المعاني أُجملها في الآتي :

أ–إظهار المودة والحب للبقاع الشامية وأهلها .

ب– استحضار الذكريات الحلوة والأيام الخوالي .

ج– الشكوى من بُعد المسافة بين الدارين المصرية والشامية

د– إظهار كمال الود والمحبة من الراسل للمرسل إليه مع قبول رسالة شكيب في التعزية و الدعاء له بسابغ النعمة والفضل ورغد العيش .

صدق العاطفة وصفاء الود هو العنوان الأبرز لهذه الرسالة يظهر ذلك واضحا في كل معنى من المعاني المطروحة فيها . ومن الاختلافات الظاهرة في هذه الرسالة والتي لابد من أخذها في الاعتبار أن البارودي يبعث بهذه الرسالة إلى شكيب وقد أنعم الله عليه بالعودة إلى أرض الوطن ، وبينما كانت رسائل شكيب إليه تسلية للصبر على آلام الغربة ، أضحت هنا تعزية لفقد الابنة وشتان بين الحالين .

ج–الرسالة من حيث الصور والأخيلة :

يُقدّم البارودي مجموعة من الأدوات الحجاجية يستخدمها دليلا على حبه الصادق للشام وأهله عامة ولشكيب خاصة وهي كالآتي :

أ – فعل الأمر الموجه للمخاطب " حيّ – وادع " وللأمر دلالة حجاجية ظاهرة فمجرد " قيام الشاعر في الخطاب آمرا ، وناهيا له قيمة حجاجية بيّنة فمن أعطى نفسه حق الاضطلاع بوظيفتي الحضّ ، والردع ، قد لبس في شعره حُلة الحكيم الناصح ، الذي خبر صروف الدهر ، وابتلى ناسه فكان حقيقا بهذا الدور جديرا بالطاعة ، وهو أمر يعيه الشاعر كل الوعي ، ويحرص على التصريح

به قبل إملاء النصائح ، وإصدار الأوامر ، والنواهي " [١]وهو المعروف عند التداوليين ب" الافتراض المسبق "

ب- الصورة الاستعارية التي جعلت من الحمامة إنسانا يتكلم ويسمع ويستجيب والاستعارة من التقنيّات الحجاجية الناجعة لأنّها ؛ تخبّىء في جعبتها تشبيها ولا تُصرّح به فتثير المتلقي ذهنيا ، ونفسيا ، ومن ثمّ تقنعه بالمعنى المراد ، الذي يحقق المقصود ؛ ذلك أنّها قائمة على الادّعاء ، هذا الادّعاء يجعل من المستعار منه ، والمستعار له جنسا ثالثا بفعل الخيال ، فيصير المستحيل ممكنا عن طريق الخيال ، فتتلاشى المسافة بينهما عن طريق التوهم .

لم يستطع البارودي أن يبتعد عن الصور التراثية الشعرية فتمسك بها وحرص على أن يستفيد من معينها الذي لا ينضب . فالسفينة في البحر تشبه الخيول الجامحة ، والإبل النافرة ويكأنه بهذه الصور القديمة يعلن على الملأ أن لديه قناعة بأن الصورة لاتكتمل إلا بالاعتماد على التراث القديم واستحضار أدواته وصوره حيث قال :

وترى السّفن كالجبال تهادى ..... خافقات البُنُود* والأعلامِ

تعتلي تارةً وتهبط أخرى ..... في فضاءٍ بين السّها* والرّغام*[٢]

هي كالدّهم جامحاتٌ ولكن ..... ليس يُثنى جماحُها بلجامِ

وعندما شرع في مدح شكيب **قال :**

فمتى يسمحُ الزمانُ فألقى ..... ب" شكيب " ما فاتني من مَرَامِ

هو خِلٌ لبستُ منه خلالا ..... عبقاتٍ كالنّور في الأكمامِ

صادقُ الود لا يخيسُ بعهدٍ ....وقليل الناس رعى الذّمامِ

جمعتنا الآدابُ قبل التّلاقي ..... بنسيم الأرواح لا الأجسامِ

وبلغنا بالودّ مالم ينله ..... بحياة القربى ذوو الأرحامِ

فلئن لم نكن بأرضٍ فإنّا ..... لاتصال الهوى بدار مُقامِ

وائتلاف النفوس أصدق عهدا . ..... من لقاءٍ لم يقترن بدوامِ

لألمعيّ له بديهة رأيٍ .....،،.. تُدركُ الغيب من وراء لثامِ

جمع البارودي بين مجموعة من الصفات وصف من خلالها العلاقة القوية التي جمعت بينه وبين شكيب أرسلان أوبمعنى آخر الصفات التي كانت سببا في إعجاب البارودي بشخص شكيب وأدبه وفنه، فحكم بأن جميع صفاته حسنة جيدة مثل طاقة من الورود لاتدري أيّها أجمل وأروع ،

---

[١] – الحجاج في الشعر بنيته وأساليبه د/ سامية الدريدي – ص١٥٠

[٢] – * البنود جمع بند : العلم الكبير * السّها : كوكب صغير خفيف الضوء * الرغام : التراب

كما يلاحظ حرص البارودي وتأكيده على أن الذي جمع بينهما هو اتفاق الهوى والمزاج العام وحبهما حياة الأدب وعشقهما دنيا الشعراء ، وأن تلاقي الأرواح وتآلفها هو الأهم في العلاقات الإنسانية الطيبة لذا حرص على إظهاره أكثرمن غيره فأصاب كبد الحقيقة .

هذا ..وقد التزم البارودي بالوزن ذاته فاعتمد على إيقاعات بحر الخفيف المتوّج بروي الميم المكسور، وهوهنا متبع لا مبتدع .

(الخاتمة)

وبعد هذه الدراسة للمراسلات الشعرية التي كانت بين البارودي وشكيب أرسلان وأظنها من أروع المراسلات الشعرية التي زيّنت العصر الحديث فقد خلصتُ إلى النتائج التالية :

أ–تميّزت رسائل البارودي بالتركيزالشديد في عرض المعاني بينما اتسمت رسائل شكيب بالطول المفرط والاستقصاء في عرض المعاني .

ب– الصورالفنية في الرسائل عندهما مستوحاة من التراث الشعري القديم ، وقلما تعثرعندهما على صورة مأخوذة من الواقع الحياتي لهما .

ج– كلاهما كان حريصا على مدح رسالته في الخاتمة ووصفها بأنها من جيد المنظوم أو أنها تشبه الدر في قيمتها ومكانتها .

د– من الملاحظ أن ألفاظ شكيب في رسائله أقوى وأجزل وبعضها موغل في الغرابة ويسيطر عليها عدم الوضوح باستثناء الرسالة الرابعة الأخيرة . وقد بيّنت أسباب ذلك في موضعه . في حين كانت ألفاظ البارودي في رسائله رقيقة مأنوسة ومعانيه مفهومة ، وصورة واضحة فبات البارودي يغرف من بحر بينما شكيب ينحت في صخر .

هـ– كان شكيب في رسائله أطول نَفَسا من البارودي . فقد وصلت إحدى رسائله إلى أربعة وستين بيتا ، بينما أقصى ما وصلت إليه رسالة عند البارودي كانت سبعة وأربعين بيتا ، وقد عللتُ ذلك بأن شكيب كان يجاهد نفسه ويعرض بضاعته لإثبات قوته البيانية أمام البارودي حتى يكون جديرا بمراسلته فهو يعلم تماما مكانة البارودي في دنيا الشعر .

و– حديث البارودي عن الفردوس المفقود وألم البعد عن الحبيبة ليس مقصودا لذاته وإنما يعبر من خلاله عما يعانيه من ألم البعد عن الوطن والشوق إلى رؤية الأحبة والأهل ؛ لذا رأينا شكيب لا يشكو فراقا أو بُعدا وإنما تنعّم بالوصل وعبّر عن سعادته في الحب فالحال بينهما مختلف وقد ترجم كل منهما عن واقعه.

ز– مراسلة البارودي لشكيب تمثل رمزا كبيرا فشكيب يعني بالنسبة للبارودي عالم الشرق ، والحياة العربية بكل مفرداتها تلك التي فقدها البارودي بمجرد نفيه ، وإبعاده عن وطنه .

ح– كلاهما يمدح الآخر بطيب الأصل ونباهة الفرع وقوة البيان ويجعله في صفوف فحول الشعراء وأرباب اللغة والبيان .

ط– نوّع الشاعران في الموسيقا الشعرية لرسائلهما ولكنهما لم يخرجا عن مشاهير البحور الشعرية (الطويل – البسيط – الكامل – الخفيف) وكانت الرسائل الثلاث الأولى موسيقاها من اختيار البارودي فهو

البادىء بالمراسلة ، وشكيب يرد على الرسالة ويلتزم في ردّه الوزن ذاته وكذا القافية نفسها ، وأيضا حرف الروي وحركته فهو في هذا متبع لا مبتدع .

ي- الرسالة الرابعة والأخيرة الأمر فيها جد مختلف . فشكيب هو البادىء بالمراسلة فإذا ألفاظه ومعانيه وصوره واضحة تمام الوضوح ،على عكس الرسائل السابقة عليها ، كما أنها الرسالة الوحيدة بينهما التى تلقاها البارودي بعد عوته من المنفى وكانت للتعزية في وفاة إحدى كرائمه .

ك- الطول المفرط ، وجزالة الألفاظ ، وغرابة المعاني أهم ما يميز رسائل أمير البيان شكيب أرسلان ، وتلك خصائص لاتتفق وطبيعة المراسلات الشعرية التي تفرض على الشاعر أن يوجز في القول ، ويختار من الألفاظ أيسرها ، ومن المعاني أكثرها وضوحا كل هذا يجعلنا نقول بأن الغرض من هذه القصائد المرسلة من شكيب إلى البارودي ليست مجرد مراسلة وإنما الحقيقة التي تختفي وراءها هي الرغبة الأكيدة لدى شكيب بأن يجعل من نفسه منافسا للبارودي في مكانته الشعرية ، ومحاولة منه أن يبني لنفسه مجدا بمخاطبته إياه والحديث معه ، ويؤكد ذلك أنه صدّر بهذه الرسائل الصفحات الأولى من ديوانه ، وخصّها بقسم منفرد وهو القسم الأول مما يدل على مكانتها عنده ، واعتزازه بها ، وافتخاره بما داربينه وبين البارودي أمير الشعراء في عصره كما أطلق عليه .

ل- تعتبر تلك الرسائل المتبادلة بين البارودي وشكيب من أروع ما كُتب في هذا النوع من الرسائل ، وذلك لأنها دارت بين قامتين كبيرتين من قامات الشعر كانت بين أميرالشعر وأمير البيان فكانت فريدة في بابها مميزة في أدبها .

م- مراسلات البارودي إلى شكيب أرسلان من النوع الذي يُطلق عليه " رسائل شعرية " ذلك لأن ؛ اهتمامه فيها ينصب على الرسالة بعناصرها أكثر من الشعربخصائصه وسماته ، أما قصائد شكيب فهي من " الشعر الرسائلي " الذي يهتم فيه الشاعر بالشعر وسماته وخصائصه أكثر من اهتمامه بعناصر الرسالة ومقوماتها ، فالشعرية عند البارودي صفة للرسالة بينما عند شكيب نعتا للشعر .

ن- كل المراسلات الشعرية التي دارت بين البارودي وشكيب كان حرف الروي فيها مشكل بحركة " الكسر " والسر في ذلك عند البارودي لأنه هو البادىء بالمراسلة دائما وشكيب يُلزم نفسه بما مالت إليه نفس صاحبه فيسير على حركة الروي المكسور متبعا في ذلك غير مبتدع ، باستثناء الرسالة الأخيرة تلك التي بدأ فيها شكيب بالمراسلة والبارودي أتبعها بالرد عليها ، وحتي هذه أيضا كان حرف الروي فيها مكسورا . فما السر وراء هذا الاختيار ؟

البارودي في منفاه كان يعاني ألما نفسيا شديدا يكفيه بُعده عن وطنه وأهله ، ناهيك بشعوره بالأسى والحزن عما يجري أمامه في الوطن العربي من تفرق الكلمة ، وفقد وحدة الصف والتدخل الأجنبي في البلاد العربية ، كل هذا وهو مكتوف الأيدي مقيد بالنفي والاستبعاد ، ومراسلته للأمير شكيب كانت

بالنسبة له طاقة نور ينظر من خلالها إلى عالم الفردوس المفقود دنيا الشرق الأسير فجاء " الكسر " متوجا رسائله ومعبرا أصدق تعبير عما يقاسيه ، وما يعتصر وجدانه وفكره .

س- آثر شكيب أن يعنون لمراسلاته مع البارودي بـ " المراسلات السامية " تقديرا لمنزلة البارودي واعترافا بعلو شأنه ، وأيضا رغبة أكيدة منه أن يُظهرشرف مراسلته لأمير الشعراء في عصره كما أحب أن يُطلق عليه . لذا ؛ صدّر بها ديوانه وجعلها في مقدمة صفحاته وخصّها بالقسم الأول منه .

هذا ، والحديث عن أدب المراسلات الشعرية حديث ماتع نافع ، مازال ينتظر الكثير من جهد الباحثين والنقاد، فالمكتبة الأدبية في حاجة ضرورية إلى الحديث عنها ، خاصة لدى أعلام المراسلات الشعرية أولئك الذين تحكي لنا رسائلهم عن حياتهم ومجتمعهم، وأخص بالذكر دراسة المراسلات الشعرية التي كانت بين الشاعرين الفلسطينيين محمود درويش وسميح القاسم وغيرهما فالأمثلة كثيرة لمن أراد أن يُفرد مجالات في البحث الأدبي بإضافات حقيقية تُحمد له، وتُنسب إليه.

والله من وراءالقصد وهو الهادي إلى سواء السبيل

ثبت المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

-البارودي – ديوان – حققه وضبطه وشرحه: علي الجارم ومحمد شفيق معروف – ط- دار العودة – بيروت لبنان ١٩٩٨

-الأمير شكيب أرسلان – ديوان ط- مؤسسة هنداوي

ثانيا : المراجع :

- أبوتمام – ديوان – شرح الخطيب التبريزي – تحقيق – محمد عبده عزّام – ط – دار المعارف – مصر

- أعلام الأدب والفن –د/ أدهم الجندي – ط- مطبعة مجلة صوت سوريا – دمشق

- الأعلام – الزركلي – ط- دار العلم للملايين – بيروت – لبنان

- الأمير شكيب أرسلان – سيرة ذاتية – شكيب أرسلان – ط – الدار التقدمية – ط١

- البارودي فارس الشعراء – د/ أحمد سويلم – ط- الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٧

- الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه – د/ سامية الدريدي – ط- عالم الكتب الحديثة – الأردن

- المختارات الشعرية وقضايا الوطن – د/ عبد العزيز شرف – ط- دار قباء – القاهرة

- أمير البيان شكيب أرسلان – د/ أحمد الشرباصي – ط- مطابع الكتاب العربي – مصر ط- ط١

- حاتم الطائي – ديوان – ط- دار صادر – بيروت – لبنان

- ذكرى الأمير شكيب أرسلان – المراثي وحفلات التأبين وأقوال الجرائد – صنفها ووقف على طبعها – محمد الطاهر – القاهرة

- زهير بن أبي سُلمى – ديوان – شرحه وضبط نصوصه وقدّم له د/ عمر فاروق الطّباع – ط- دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت – لبنان

- شوقي أو صداقة أربعين سنة – الأمير شكيب أرسلان – ط- مطبعة عيسى البابي الحلبي – مصر

- عيار الشعر – ابن طباطبا العلوي – تحقيق عباس عبد الساتر –ط- دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان

- كعب بن زهير – ديوان – ط- دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت – لبنان

- لسان العرب- ابن منظور المصري – ط- دار المعارف – مصر

– محمود سامي البارودي – د/ عمر الدسوقي – ط– دار المعارف – مصر
– محمود سامي البارودي رائد الشعر العربي في العصر الحديث – محمد إبراهيم سليم ط– دار الطلائع – ٢٠٠٥
– محمود سامي البارودي شاعر النهضة – د/ علي الحديدي – ط– مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٠
–الأمير شكيب أرسلان – حياته وآثاره – د/ سامي الدّهان –ط– دار المعارف – مصر

ثالثا : الأبحاث العلمية :

– الرسائل الشعرية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري – دراسة موضوعية فنية – بحث مقدّم من الباحثة : ميادة حسين جبوري – جامعة تكريت ٢٠١٠
– الرسائل الشعرية في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي – دراسة موضوعية فنية – بحث مقدّم من عبد العظيم السامرائي – جامعة تكريت – العراق
–الرسائل الشعرية في العصر الجاهلي – قراءة في بدايات النوع الأدبي – بحث مقدّم من الباحثة : مهى عبد القادر – الجامعة الهاشمية – الأردن
–جمالية فن الترسل الشعري في الأندلس – بحث مقدّم من د/ ابتسام دهينة – منشور بمجلة " إشكالات في اللغة والأدب – الجزائر– العدد الثاني

رابعا : المجلات والدوريات :

– الرياض –صحيفة– عدد محرم – ١٤٤٣–٢٠٢١
– العرب الإقتصادية – جريدة– عدد سبتمر ٢٠٢٠
– الرسالة – مجلة – عدد ديسمبر ١٩٤٧
– الخليج – مجلة – عدد ١٢/٦/ ٢٠١٨

خامسا : مواقع الشبكة العنكبوتية (الانترنت)

موسوعة ويكيبديا